الفَصْلُ الثَّالِثُ: نِعَمُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

قال الله عز وجل﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل٥٣]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة٢٤٣]

فلا بد لمن أراد أن يكون من الشاكرين أن يدرك -بدايةً- أن الله -عز وجل- هو وحده صاحب النعم، وهو -وحده- المتفضل على عباده لا ينازعه فى ذلك أحد، أي: أنه لا بد من أن يعرف المنعم -تبارك وتعالى- قبل أن ينشغل بمعرفة النعمة.

ثم بعد ذلك يسعى لمعرفة النعمة، ومما قيل فى معرفة النعمة: [معرفة النعمة تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم بروق المنة، والاعتبار بأهل البلاء[1]].

أي: أن العبد إن أراد أن يشاهد نعم الله مشاهدة حقيقية يتسنى له ذلك بثلاثة أمور؛ أولها: أن يُعْمِلَ عقله حتى ينير وينتبه لإدراك النعم التي قد لا يراها الكثيرون ولا يعيرونها اهتمامًا، وثانيها: أن ينظر إلى تلك النعم ويطالعها، وثالثها: أن يعتبر بأهل البلاء الذين هم فى بعد عن صراط الله المستقيم؛ ليحمد الله -عز وجل- أنه ليس منهم وليستشعر عظم نعمة ربه عليه.

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٦٢).

وبعد معرفته للنعمة فعليه أن يكون متذكرًا على الدوام لتلك النعمة فى كل حركاته وسكناته؛ مستشعرًا أنه إنما يحيا بمنن ربه عليه فى كل لحظة من لحظاته، وأنه لا غنى له عن ربه طرفة عين أو أقل من ذلك.

ولقد أمرنا ربنا -تبارك وتعالى- بتذكر نعمه علينا فى العديد من الآيات القرآنية مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر٣]

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ* لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف١٢-١٣].

وهناك الكثير من الآيات المماثلة التى يذكر المولى -عز وجل- فيها نعمه على عباده ثم يأمرهم بتذكرها وشكرها.

أنواع النعم

النعم ثلاث كما قال ابن القيم رحمه الله: [نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها؛ فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصره بالطرق

التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها] (١).

فالنعم منها ما يحيا به العبد، ويدركه تمام الإدراك، ويعلم به ويقره بقلبه ولسانه، ومنها نعم ينتظرها العبد ويرجوها، ويسعى لنيلها بالحلال الطيب ونعم يعيش المرء يتقلب فيها؛ لكنه لا يشعر بها ولا يقدرها من كثرة إلفه لتلك النعم، وقد لا يدركها إلا إذا سُلِبَتْ منه.

وإن الله -عز وجل- إذا أراد أن يتم نعمته على العبد المؤمن جعله يدرك ما هو فيه من نعم حاضرة ووفقه لتأدية شكرها ووقاه المعاصي التي تزيلها، كما أنه يوفقه للأعمال الصالحة التي تجلب النعم المرجوة كما يعرفه -سبحانه وتعالى- ما هو فيه من نعم لا يدركها، ولا يقدرها حق قدرها، وذلك من فضل الله على عبده المؤمن.

النعمة قد تكون للابتلاء

المؤمن كيس فطن، ومن رزقه الله الفطنة والعقل المستنير بالإيمان والعلم والفهم؛ فإنه يدرك أن النعم التي ينعم الله بها عليه ليست بالضرورة أن تكون سببًا في سعادته وجلب الخير له في الدنيا والآخرة، فقد ينعم الله -عز وجل- على عبده نعمه ليبتليه ولينظر -سبحانه- ما يفعل العبد بها، ولقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون٥٥-٥٦].

---

(١) الفوائد صـ ١٥٢.

فالنعمة قد تكون وبالاً على صاحبها إن هو أساء استقبالها واستخدامها، فمثلاً: المال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة، نعمة على من أنفقه في أوجه الخير فأطعم الفقراء وكفل الأيتام ووصل به رحمه، وساهم في إعمار الأرض، وفي نهضة أمته، ونقمة على من أنفقه على شهواته وعلى الرشوة وتعامل فيه بالربا وسعى بماله ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، فرغم أن المال هو المال في الحالتين، لكن الفرق كبير جدًّا بين الحالين.

وعلى العبد المؤمن أن يضع نصب عينيه دائمًا أنه مسئول أمام ربه يوم الحساب عما أعطاه من نعم واستخلفه فيها، كما قال -عز وجل- في سورة التكاثر: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر٨]

وعن عمر بن سعيد بن حسين عن أبي حازم قال: [إذا رأيت الله -عز وجل- يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره.

وعن محمد بن عبيد قال: إن بعض أهل الحجاز قال: قال أبو حازم: كل نعمه لا تقرب من الله -عز وجل فهي- بلية [(١)]].

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

نعم الله -عز وجل- كثيرة لا يمكن للمخلوق أن يحصيها مهما اجتهد في ذلك؛ بل إنه بنص القرآن لا يقوى على أن يحصي نعمة واحدة منها؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل١٨]

---

(١) صفة الصفوة (٢ / ١٥٧).

وقال سبحانه: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم ٣٤]

فالله -عز وجل- نعمه فوق قدرة العباد على إحصائها؛ لذلك فهو يغفر لهم تقصيرهم فى إدراك نعمه ما داموا يجتهدون فى حدود طاقتهم وقدراتهم البشرية على شكر ما يستطيعون إدراكه.

وكان بعض العلماء يقول فى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل ١٨] [سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمة إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانًا علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك [(١)]].

الله -عز وجل- أعلم بمن خلق ولا يكلف نفسًا إلا وسعها؛ ولذلك فقد جعل أعلى درجة من درجات معرفة النعمة أن يدرك المرء تقصيره عن معرفتها، وأنه مهما بذل فلن يؤدى حقها لربه -عز وجل- وذلك هو عين الشكر، وكذلك الحال فى العلم فجعل من تمام علم العالمين وتمام شكرهم لربهم على ذلك العلم أن يدركوا أنهم لا سبيل لهم لإدراكه -سبحانه- فهم لا يتجاوزون بعقولهم حدود الإيمان.

---

(١) عدة الصابرين صـ١٤٢

والشاهد أن على العبد المؤمن أن يسعى لمعرفة نعم الله، ويسعى لتأدية شكرها بقلبه ولسانه وجوارحه ولا يدخر وسعًا فى ذلك؛ ولكنه فى الوقت نفسه يكـــون على يقين راسخ بأنه لن يحصى نعمة ربه عليه.

وفيما يلى نحاول أن نعدد بعضًا من نعم الله -عز وجل- علينا، والتى وردت فى القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو من خلال ما نستشعره من حولنا أو من النظر فى أنفسنا، ونسأل الله العون والسداد.

نعمة الوحدانية

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة١٦٣]

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء١١١]

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥]

ووحدانيته -عز وجل- نعمة عظيمة؛ بل إنها ذروة سنام النعم جميعها، وكلمة التوحيد (لاإله إلا الله) هى خير الكلام على الإطلاق وأثقلها فى الميزان يوم البعث والحساب، وفيها سر النجاة ومفاتح الخير؛ بها ينقلب المرء من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان ومن صحراء الجهل إلى رياض العلم، ولقد قال المصطفى ﷺ : خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١).

صدقت يا رسول الله؛ فهذه الكلمة العظيمة لولاها لما خلقت السموات والأرض، ولا جعل الموت والحياة، ولا خلق الخلق ولولاها لما وجد الثواب والعقاب والجنة والنار ولا أرسل الرسل ولا خلقت الملائكة؛ فكون ربنا -عز وجل- لا شريك له؛ فتلك نعمة لا نستطيع أداء شكرها لأننا لو تأملنا بعقولنا وقلوبنا لأدركنا أنها قوام الحياة، فلو تخيلنا أن لهذا الكون أكثر من إله هل كان الأمر سيستقيم؟! هل كانت الأجرام والأفلاك ستسير وتدور بهذا الانتظام العجيب؟! هل كانت الشمس ستشرق علينا فى موعد لا تخلفه؟! والقمر هل كانت منازله ستتابع كما هو حالها منذ الأزل؟!.

بل لنسأل أنفسنا لمن تكون عبادتنا وولاؤنا؟ وكيف يتسنى لنا أن نعرف الحق من الباطل ومن بيده رزقنا وحياتنا وأجلنا وعقابنا وثوابنا؟ ومن تكون بيده مفاتيح الجنة والنار؟ وأين تذهب الأعمال الصالحة والقربات إن هى ذهبت لإله؟ فكيف يكون حالنا مع الآخر؟ وإن أراد أحدهما أمرًا وأراد الآخر غيره فما حال أحدهما

---

(١)صحيح رواه الترمذى ٣٥٨٥.

وقال -سبحانه- على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف٣٨]

فالإسلام من أجل نعم الله علينا، والمسلم عليه أن يحمد الله -عز وجل- أن هداه للإسلام الذى هو دين الله -عز وجل- الذى ارتضاه للناس والذى به تمت الرسالات واكتمل المنهج الربانى كما قال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة٣]

والإسلام هو دين الرسل -جميعهم- من عهد آدم -عليه السلام- وحتى بعثة الحبيب المصطفى كما قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس٧٢] وقال سبحانه على لسان يوسف عليه السلام﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف ١٠١] وكما جاء فى سورة البقرة من أمر الله عزوجل لخليله إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة١٣١-١٣٣]

والآيات فى هذا المعنى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها؛ فكل الرسل والأنبياء كانت رسالتهم واحدة وهى الدعوة إلى توحيد الله -عز وجل- ولكن الاختلاف كان فى التشريع والمنهج الذى يختلف باختلاف الزمان والمكان وبحسب الحاجة كما يقدرها الله عز وجل؛ لأن كل الأنبياء قبل سيدنا محمد كانت رسالتهم محدودة بزمان ومكان معينين؛ فكل نبى كان يرسل إلى قومه؛ ليدعوهم إلى توحيد الله -عز وجل- وليصلح ما بهم من اعوجاج؛ حتى أذن الله -عز وجل- أن تُختم هذه السلسلة المباركة برسالة نبينا محمد؛ ليكون خاتم الأنبياء ولتكون رسالته للناس كافة لا يحدها زمان ولا مكان، رسالة صالحة بشرعها الربانى إلى يوم القيامة يجد فيها كل حائر ضالته وكل ذى سقم دواءه.

فالإسلام نعمة عظيمة قد لا يدرك البعض قدرها لا سيما ممن ولدوا مسلمين؛ فالأمر قد يكون بالنسبة لهم شيئًا ألفوه، ووجدوا آباءهم عليه فتبعوهم دون تأمل أو تدبر فى فضل الله عليهم أن أخرجهم إلى الدنيا على الإسلام، ولو وقف هؤلاء مع أنفسهم وقفة تفكر وتأمل لتلك المنة الجليلة، وسألوا أنفسهم كيف لو أنهم كانوا على غير الإسلام، بل كيف لو ماتوا على ذلك، أليس ذلك هو الهلاك المحقق والخسران المبين؟ هل كانت ستغنى عنهم أموالهم وأولادهم وما حققوه من مكاسب دنيوية، ومن أين كانوا سيأتون بدين فيه كل هذا الجلال والكمال وبشريعة يستقيم بها أمر الدنيا والآخرة من سار عليها ولزمها سعد فى الدنيا والآخرة وأحياه ربه -عز وجل- حياة طيبة بقلب مطمئن ونفس ساكنة وروح

متعلقة ببارئها تسعى فى الحياة بجد وتعمر الأرض كما أمرها ربها؛ ولكنها لا تتخذ الدنيا لها وطنًا، وتدرك أن الحياة الحقيقية هى حياة الآخرة.

وهذه نعمة أخرى تندرج تحت نعمة الإسلام وهى نعمة أن يعمل الإنسان وأمامه غاية سامية يسعى وهو على يقين بوجودها فلولا ذلك لكانت حياة المرء فارغة تافهة لا هدف منها ولا قيمة؛ بل تكون الدنيا هى غاية المنتهى بالنسبة له وما أقسى ذلك الشعور.

فليشكر كل منا ربه كثيرًا على أن هداه للإسلام؛ وكفى به نعمة ومنة من رب كريم فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عليهم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران١٦٤] فلك الحمد يا ربنا على نعمة الإسلام؛ التى أخرجت بها عبادك من الظلمات إلى النور ومن الضلال على الهدى ومن الضيق إلى السعة، ولك الشكر يا من أكملت لنا ديننا، وأتممت علينا نعمتك، ورضيت لنا الإسلام دينًا؛ فهو -حقًّا- تمام المنة وكمال الأمر.

إسلامنا حبل متين هو عزنا دنيا ودين
منهاج خير للورى يهدي نفوس الحائرين
الله أنزله على ليل الجهالة فانجلى
بالحق جاء مفصلاً هو رحمة للعالمين
فيه المحبة والإخاء فيه الأمانة والوفاء
هو دين كل الأنبياء كانوا جميعًا مسلمين
العدل تحت لوائه والأمن ظل سمائه
والخير في أبنائه دومًا على مر السنين
ورسولنا خير الأنام بالحب جاء وبالسلام
منهاجه خير الكلام كلام رب العالمين
إسلامنا طوق النجاة فاستمسكوا يا إخوتاه
وحسبكم أن الإله قد ارتضى الإسلام دين

نعمة إرسال الرسل

الله -عز وجل- من أسمائه الحسنى الحكم العدل، وذلك يعني: أن الله -عز وجل- حرم الظلم على نفسه -سبحانه- فهو منزه عن كل نقص، ومن أعظم الشواهد على عدله -تبارك وتعالى- أنه لما جعل مبدأ الثواب والعقاب وخلق الجنة والنار؛ ليثاب المحسن ويعاقب المسئ -اصطفى عز وجل رسلاً من الملائكة ومن الناس؛ ليبلغوا عنه -سبحانه- مراده من خلقه، وليعرفوهم به -عز وجل- ويدعوهم إلى توحيده وعدم الإشراك به -تبارك وتعالى- وليرسموا لهم الطريق

المستقيم الذى إن تبعوه قادهم إلى جنة الرضوان، وإن انحرفوا عنه كبت وجوههم فى النيران.

والله -عز وجل- يفعل بعباده ما يشاء؛ إن يشأ يرحمهم، وإن يشأ يعذبهم فهو -سبحانه- لا يسأل عما يفعل؛ ولكنه سبحانه غنيّ عن عذابنا إن نحن سمعنا وأطعنا واتبعنا دينه.

والله -عز وجل- إنما أرسل الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين؛ لكى يقيم الحجة على عباده، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر فى صدهم عن دينه واستكبارهم عن اتباع رسله كما قال عز وجل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء١٦٥]

فالله -عز وجل- يمهل عباده ويوضح لهم طريق النجاة وطريق الهلاك، ويبشرهم وينذرهم كل ذلك على لسان رسله -صلوات ربى وسلامه عليهم- أجمعين ويسعى هؤلاء الرسل الكرام لهداية أقوامهم بشتى الوسائل يتحملون ما يفوق طاقة البشر من الأذى، ويصبرون ويجتهدون فى مد يد العون لكل ضال ولكل مسرف على نفسه؛ حتى إذا أخذ الله -عز وجل- تلك القرى كان ذلك بما كسبت أيديهم وبظلمهم لأنفسهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص٥٩]

قال سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء ٢٠٨] فإرسال الرسل إلى الناس فضل من الله ورحمة بخلقه، ونعمة تستوجب الشكر الجزيل؛ لأنهم حلقة الوصل بين العباد ورب العزة تبارك وتعالى.

ومن رحمته عز وجل أنه يرسل الرسل؛ كلاً بلسان قومه؛ لأن ذلك أدعى للبيان والتبليغ بشكل يسير وصحيح، ليس فيه التباس ولا غموض حتى تتضح لهم الصورة كاملة؛ ليؤمن من آمن عن بينة ويقين، ولتكون الحجة دامغة على من يعرض ويتكبر.

نعمة النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران١٦٤]

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة٢]

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب٤٥-٤٦]

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء١٠٧]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨]

فمن أعظم نعم المولى علينا أن أرسل إلينا رسوله الكريم أفضل البشر على الإطلاق، وأن جعلنا من أتباعه، فنبينا محمد هو شمس الهداية إلى طريق رب العالمين، وهو السراج الذى ينير لنا الطريق، وهو معلمنا وهادينا وقدوتنا وشفيعنا يوم الحشر العظيم؛ إنه مبلغ رسالة الله -عز وجل- إلى الدنيا بأسرها وهو الذى أخرج الله به الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الجور والظلم إلى الرحمة والعدل؛ إنه ﷺ من غيرت بعثته وجه الحياة وملامحها فى فترة تعد قصيرة جدًّا بمعيار التاريخ البشرى حتى إن أعداء الإسلام شهدوا له -صلى الله عليه وسلم- أنه أكثر الشخصيات على مدى تاريخ البشرية تأثيرًا وتغيرًا فى كل مناحى الحياة؛ فلم تكتمل كل جوانب العظمة لإنسان كما اكتملت له -صلوات ربى وسلامه عليه- فهو الوحيد من بنى البشر الذى حقق قمة النجاح على كل المستويات.

فعلى المستوى الإنسانى تجده صاحب أطهر نفس وأنقى سريرة وأحسن خلق وصاحب أعلى درجة من درجات الإيمان والتقوى والعبودية لرب العالمين.

وعلى المستوى السياسى والعسكرى تراه قائدًا مسددًا ومقاتلاً قويًّا على أعداء الله.

وعلى المستوى الاجتماعى فهو الأب المعلم الحنون والزوج المحسن لأهله كأحسن ما يكون الإحسان والتاجر الأمين والصاحب الوفى والمعلم والمربى لخير جيل عرفته البشرية؛ إنه ﷺ لولا مَنَّ الله علينا ببعثته المباركة لكانت الحال غير الحال، ولبقيت البشرية تتقلب فى ظلمات الجهل والشرك والفلسفات المضلة والتشريعات البشرية التى لا تستقيم بها الحياة.

فاللهم احشرنا فى زمرته ولا تحرمنا شفاعته يوم الحشر العظيم، واجعلنا ممن يسقون من حوضه الشريف شربة لا نظمأ بعدها أبدًا، وارزقنا اتباع هديه واقتفاء سنته؛ حتى نكون أهلاً لنسبتنا إليه ﷺ.

وجه الزمان من السرور أنارَ ... والحسنُ خجلاً من سناه توارى
ولد الحبيب فأشرقت بضيائه ... شمس الهداية تنشر الأنوارا
بشراك بالمختار يا أم القرى ... من ليس بين العالمين يبارى
خير الأنام المجتبى من ربه ... نسب يتيه به الوجود فخارا
لما أهل على الوجود تفتحت ... له الزهور وفاحت الأعطارا
ملك القلوب بصدقه وعفافه ... فغدا الأمين نداؤه إذ سارا
لمكارم الأخلاق يدعو والتقى ... والعدل أضحى راية وشعارا
وبشرعة الرحمن جاء مبينًا ... للحق دربًا والأنام حيارى
شهد الجميع بخلقه حتى العدا ... ولمدحه كم سطروا الأشعار
يا نعمة لسنا نوفى شكرها ... مهما بذلنا أنفسًا وديارا
فقدرك السامى يفوق ثناءنا ... وليس يبلغ مدحنا المعشارا

نعمة الهدى

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف٩]

قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر٣١]

وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر٢٣]

فالهدى من أجل نعم الله -عز وجل- على عباده وهى بيده وحده -سبحانه- يهبها لمن يشاء ويترعها ممن يشاء؛ فالخلق هم عباد الله وصنعته وهو -عز وجل- أعلم بقلوبهم؛ فمن علم فى قلبه إيمانًا صادقًا وحبًّا للهدى والصلاح وسعيًا جادًّا فى ذلك وفقه سبحانه وهداه كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد١٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن ١١] وفى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ معنى يجب أن نقف عنده؛ فالذين اهتدوا أي: سعوا فى طلب الهداية من ربهم موقنين أنه وحده القادر على هدايتهم أعطاهم سؤلهم فهداهم ووهبهم الثبات على تلك الهداية، ووفقهم لسُبُلها وأعطاهم المزيد من الهدى، ذلك لأنهم علموا أن الهداية نعمة وفضل من الله، فشكروا و لم يفتروا بتلك النعمة بل ازدادوا تواضعًا لربهم

وعلى المستوى الاجتماعى فهو الأب المعلم الحنون والزوج المحسن لأهله كأحسن ما يكون الإحسان والتاجر الأمين والصاحب الوفى والمعلم والمربى لخير جيل عرفته البشرية؛ إنه ﷺ لولا مَنَّ الله علينا ببعثته المباركة لكانت الحال غير الحال، ولبقيت البشرية تتقلب فى ظلمات الجهل والشرك والفلسفات المضلة والتشريعات البشرية التى لا تستقيم بها الحياة.

فاللهم احشرنا فى زمرته ولا تحرمنا شفاعته يوم الحشر العظيم، واجعلنا ممن يسقون من حوضه الشريف شربة لا نظمأ بعدها أبدًا، وارزقنا اتباع هديه واقتفاء سنته؛ حتى نكون أهلاً لنسبتنا إليه ﷺ.

وجه الزمان من السرور أنارَ ... والحسنُ خجلاً من سناه توارى
ولد الحبيب فأشرقت بضيائه ... شمس الهداية تنشر الأنوارا
بشراك بالمختار يا أم القرى ... من ليس بين العالمين يبارى
خير الأنام المجتبى من ربه ... نسب يتيه به الوجود فخارا
لما أهل على الوجود تفتحت ... له الزهور وفاحت الأعطارا
ملك القلوب بصدقه وعفافه ... فغدا الأمين نداؤه إذ سارا
لمكارم الأخلاق يدعو والتقى ... والعدل أضحى راية وشعارا
وبشرعة الرحمن جاء مبينًا ... للحق دربًا والأنام حيارى
شهد الجميع بخلقه حتى العدا ... ولمدحه كم سطروا الأشعار
يا نعمة لسنا نوفى شكرها ... مهما بذلنا أنفسًا وديارا
فقدرك السامى يفوق ثناءنا ... وليس يبلغ مدحنا المعشارا

نعمة الهدى

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف٩]

قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر٣١]

وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر٢٣]

فالهدى من أجل نعم الله -عز وجل- على عباده وهى بيده وحده -سبحانه- يهبها لمن يشاء ويترعها ممن يشاء؛ فالخلق هم عباد الله وصنعته وهو -عز وجل- أعلم بقلوبهم؛ فمن علم فى قلبه إيمانًا صادقًا وحبًّا للهدى والصلاح وسعيًا جادًّا فى ذلك وفقه سبحانه وهداه كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد١٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن ١١] وفى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ معنى يجب أن نقف عنده؛ فالذين اهتدوا أي: سعوا فى طلب الهداية من ربهم موقنين أنه وحده القادر على هدايتهم أعطاهم سؤلهم فهداهم ووهبهم الثبات على تلك الهداية، ووفقهم لسُبُلها وأعطاهم المزيد من الهدى، ذلك لأنهم علموا أن الهداية نعمة وفضل من الله، فشكروا ولم يفتروا بتلك النعمة بل ازدادوا تواضعًا لربهم

وافتقارًا إليه وخشية، وذلك أيضًا من صور الشكر، وقد علمنا آنفًا أن الشكر سبب لزيادة النعمة كما ورد فى فصل:"ولئن شكرتم لأزيدنكم".

فعلى المؤمن أن يعلم علم اليقين أن الله -عز وجل- هو الهادي ولو أن المرء اتبع كل أسباب الهدى ولم يرد الله -عز وجل- له الهداية فلن يهتدى إذًا أبدًا، ولو اجتمع على هدايته أهل الأرض جميعًا، ولو أراد الله أن يهديه ما استطاع الإنس والجن ولو اجتمعوا أن يضلوه، فالأمر كله بيد الله -عز وجل- فمن رزق نعمة الهداية فليحمد الله على هذه العطية العظيمة، وليحرص على دوام شكرها؛ حتى لا يُحرم منها لأنه من حُرِمَ الهدى فقد حُرِمَ خيرى الدنيا والآخرة.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في ذلك: [فلو عرف اهل طاعة الله -عز وجل- أنهم هم المنعَم عليهم فى الحقيقة، وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم، وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى فهم أهل النعمة المطلقة، وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه، وهان عليه، وإن ذلك ليس من كرامته على ربه، وإن وسع الله عليه فى الدنيا، ومد له من أسبابها؛ فإنهم أهل الابتلاء على الحقيقة [(١)]].

أي: أن توفيق العبد من قبل ربه للطاعات هو تمام النعمة؛ التى لا بد للعبد من تأدية شكرها بشكل أكبر من غيره من العباد الذين لم يوفقوا لمثل عمله، وليعلم أنه لن يستطيع أن يوفيها حقها من الشكر، ولينظر إلى من وكلهم ربهم لأنفسهم ولأهوائهم وخلى بينهم وبين معاصيهم، وليعلم أن ما هم فيه من سعة ورغد فى

(١) مفتاح دار السعادة (١/٤٤٥)

العيش ليس من علامات رضا الله عليهم، بل إن الله يبتليهم بها؛ لينظر كيف يعملون وذلك من أشد أنواع الابتلاء.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: [والهداية هى العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره؛ فالمهتدى هو العامل بالحق المريد له، وهى أعظم نعمة لله على العبد ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى صلواتنا الخمس[١]].

أى أن الهداية تتطلب من العبد أن يعرف الحق من الباطل، ثم يجعل من الحق الذى علمه مقصدًا وهدفًا يضعه نصب عينيه لا يزيغ عنه، وأن يفضله دائمًا على ما سواه، فالمهتدى هو من يعمل بالحق الذى علمه ويريده ويسعى إليه محبًّا راغبًا فيه، وتلك نعمة جليلة، وليس أدل على عظمها من أن الله -عز وجل- جعلها دعاء للمسلمين فى كل ركعة من صلواتهم؛ حيث إن الصلاة لاتصح إلا بأم الكتاب (سورة الفاتحة).

كما كان أورد -رحمه الله- فائدة عظيمة حيث قال: [فإن الحكم لا يكفى فيه وجود مقتضيه بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه[٢]].

فالعبد لايكفيه أنه يرزقه الله الهداية فحسب؛ بل إنه يحتاج من ربه -عز وجل- أن يصرف عنه ما قد يحول بينه وبين سبل تلك الهداية أو يصرف عنه جانبًا منها؛ فالهداية تحتاج إلى تثبيت وتجديد من الله -عز وجل- وتحتاج إلى يقين من العبد أنه

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٣٣)

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٣٤).

فقير إلى ربه محتاج إليه في كل لحظة؛ كي يرزقه الهداية ثم المزيد منها، وأن يرزقه الشكر عليها حفظها، ثم إنه يحتاج إلى ثبات القلب عليها وذلك لا يكون إلا بيد مقلب القلوب -سبحانه- وبعد ذلك كله هو محتاج إلى ربه لكي يصرف عنه ما قد يمنع عنه تلك الهداية، أو يحول بينه وبين الانتفاع بها؛ فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك يا رب، واجعلنا هادين مهتدين، ولا تجعلنا ضالين ولا مضلين بفضلك يا رب العالمين.

نعمة القرآن الكريم

القرآن الكريم ذلك الكتاب العظيم المنزل من رب السماء على قلب خير الرسل والأنبياء ذلك الكتاب المعجز؛ الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء ولا يمل قارؤوه.

ذلك الكتاب الذي جعله الله -عز وجل- معجزه نبيه -صلى الله عليه وسلم- الباقية ما بقيت الحياة وما زاده التقدم العلمي إلا رسوخًا في الإعجاز ، فالله -عز وجل- أنزله على رسوله، وتكفل سبحانه بحفظه حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩]

فمن فضل الله علينا أنْ حفظ لنا كتابه على مر العصور فلم يصبه تحريف ولا تبديل، ولم يزد عليه أو ينقص منه حرف واحد، وتلك -والله- نعمة جليلة؛ حيث إنه لو تعرض القرآن للتحريف أو التبديل كما هو الحال بالنسبة لغيره من الكتب المنزلة لكان ذلك سببًا مباشرًا لفرقة المسلمين وتشردهم، ولكان مدعاة للتناحر والجدال المستمر، ولتقطعوا أمرهم بينهم، ولصاحت كل فرقة منهم بأنهم هم على

الصواب، وما عاداهم على الباطل ولطُمِسَت هويتنا الإسلامية، وفقدنا المرجعية الموحدة التى تسد باب الخلاف وتحفظ على هذه الأمة عراها.

ولكن الله -عز وجل- حفظ لهذه الأمة الخاتمة منهجها ومصدر تشريعها؛ لأنه -سبحانه وتعالى- أراد لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وأراد لهذا الدين أن يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وبقاء الدين وبقاء الأمة لا يكون إلا ببقاء ذلك الكتاب العظيم الذى يحمل بين دفتيه دستورًا للحياة ويرسم لنا طريق الوصول إلى رضوان الله، ويجد فيه كل حائر مستراحه، وكل سائل جوابَ سؤله كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام٣٨] وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة٢].

فعلينا أن نعلم عظم تلك النعمة، وأن يكون شكرها ليس بتلاوة الآيات فقط، وإن كانت من أجل العبادات، ولكن علينا أن نتدبر ونُعمل العقل، ونطالع كتب التفسير؛ لنعرف ما يخفى علينا من معانٍ، ثم بعد ذلك نعمل بما فيه تأسيًا بالنبيّ؛ الذى كان خُلُقه القرآن الكريم وبالصحب الكرام الذين قاموا بحقه أيما قيام لما علموا ما فيه من خيري الدنيا والآخرة.

اللهم ارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وارزقنا التدبر فى آياته والعمل بأحكامه، وارزقنا الشكر عليه يا أرحم الراحمين.

يا طالبًا لكتاب الله بشراكَ ... برضاء ربك ذى الإحسان والكرَمِ
قرآن ربى إن تسْعَ لبغيته ... فقد ظفرت بكل الخير والنعَمِ
نُورٌ من الرحمن قد عمَّ الورَى ... بعد ما غرقوا فى وحشة الظلَمِ

بهر العقول بدقة وبلاغة ... ضمت مجامع الإتقان والعظَمِ
آياتُهُ محكماتٌ سرُّها عجَبٌ ... تحيي موات قلوب الخلق من عدَمِ
فيه السكينة والسلوان من همٍّ ... وبه الشفاء من الأحزان والسقَمِ
ولأهله الأبرار قد حلت شفاعتهُ ... فى يوم حشر بالأهوال مزدحَمِ
ذكرٌ لرب الكون فى أعلى مراتبه ... وبه الشيطان بات بشر مُنهزَمِ
كل العلوم بآي الذكر قد جُمعَت ... فاشكر لربك ما علمت بالقلَمِ
طوبى لقوم القرآن جمعهُمُ ... فرباطهم أقوى من نسب ومن رحِمِ
وملائك الرحمن قد حفت مجالسهم ... كل بفيض من الرحمات فى غُنْمِ
يا من سلكت دروب العلم مجتهدًا ... اجعل جهادك بالإخلاص متسَمِ
واجعله منهاجًا لخير معيشة ... واعمل بشرعته وبحبله اعتصَمِ
وتَأسَّ بالصحب الكرام؛ فإنهم ... سادوا بمنهجه سائر الأمَمِ
لم يجعلوا القرآن فوق شفاههم ... بل كان بالنفس والأرواح يلتحم
إن أنت رمت بهؤلاء تشبهًا ... فاغنم شبابك قبل الضعف والهرمِ
فسعادة الدارين بين صِحَافه ... وبه تتمَّة الأخلاق والشيَمِ

نعمة المنهج الرباني

من أجل النعم التى أنعم الله بها على أمة الإسلام أن جعل لها دستورًا ربانيًّا شاملاً؛ يصلح لكل زمانٍ ومكان، ألا وهو كتاب الله؛ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأتم الله نعمته علينا بسنة نبيه الذى لا ينطق عن الهوى لتفصل ما أُجْمِلَ من القرآن.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منهاج ربانيّ متكامل؛ من تمسَّك بهما وسار على هديهما لا يضل أبدًا كما قال ﷺ [١]"تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي ولن تفرقا حتى يردا على الحوض".

وذلك المنهج العظيم لو يعلم بنو الإسلام قدره لسجدوا لله شكرًا ولسعوا لحفظ ذلك الكنز الثمين الذى قد لا يدرك قيمته الكثيرون، وعلى من لا يستشعر قدر تلك النعمة أن ينظر فى أحوال الأمم الأخرى؛ ليرى كيف أنهم ممزقون بين التشريعات والقوانين التى هى من وضع البشر والتى تتغير مئات المرات، ويتم تعديلها مرارًا وتكرارًا ويبذلون الجهد والمال والوقت الكثير فى دراسة تلك التشريعات، ولا يَصِلُون فى النهاية إلى ما يُحقق لهم ما يرنون إليه من عدل وأمن وحياة كريمة.

وذلك أمر ليس بمستغرب؛ لأن تلك التشريعات قد سنها بشر يصيبون ويخطئون، ولا يمكن لأحدهم أن يحيط علمًا بكل ما حوله من أمور الحياة لعجزه البشرى وقصور عقله، وذلك القصور والخلل فى تشريع هؤلاء يجعلهم يحيون دائمًا فى حالة من عدم الارتياح والشعور -أحيانًا- بالقهر والظلم، ويجعلهم فى حالة بحث دائم عن ضالة لهم لا يعرفون كيف يصلون إليها ولا يعرفون الجواب للكثير من الأسئلة التى تشغلهم.

والكثير منهم تنتهى به الحياة دون أن يجد لسؤاله جوابًا ودون أن يعلم لحياته غاية؛ فهو يقضي العمر فى تخبط بين فلسفات شاذة وأفكار منحرفة عن الفطرة.

---

(١) صحيح: الحاكم٣١٩، البزار٨٩٩٣، صحيح الجامع٢٣٣٢ من حديث أبى هريرة.

فعلى المسلم حين يرى ذلك أن يحمد الله -عز وجل- أن كفاه كل ذلك العناء ورزقه منهاجًا ربانيًّا؛ يسعد به فى دنياه وأخراه، وتسكن معه الروح ويستقيم العقل وتنتظم الحياة، ويجد فيه جوابًا لكل أمر دقيق أو كبير.

فشريعة الإسلام لم تدع أمرًا من أمور الدنيا والآخرة إلا وبينته سواء أكان ذلك التبيان صريحًا فى نص قرآني أو بشيء من سنة النبي أو باجتهاد العلماء الربـــانيين الذين يعرضون ما استُجدَّ من أمور على الكتاب والسنة، ويستخلصون لنا الحكم الشرعي قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء٥٩]

وكل ذلك لا شك أن فيه راحة وطمأنينة للمسلم؛ الذى يدرك أن له مرجعية يرجع إليها إذا عرض له عارض أو التبس عليه أمر.

وصور الإعجاز والكمال فى منهاجنا الرباني كثيرة لا يمكن لأحد أن يحصيها؛ ولكننا سنحاول أن نذكر أمثلة؛ من ذلك:

١- أن شريعتنا الغراء قد أحلت لنا الطيبات، وحرمت علينا الخبائث كما قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف١٥٧]

وفى ذلك رحمة من الله بعباده المسلمين فهو -سبحانه- أعلم بما يصلح به حالهم وبما ينفعهم وبما يضرهم، فكل ما أحله الله -عز وجل- فيه الخير، وكل ما حرمه ليس فيه من الخير شيء، فمن اتبع الأمر والنهى سعد فى حياته وأرض مولاه.

والعلم فى كل يوم يثبت للبشرية أن كل ما حرمه منهجنا القويم فيه من الأضرار والمفاسد ما لا يعلم مداها إلا الله، وأن الخير كل الخير فيما أحله الله -تبارك وتعالى- لعباده.

٢- أن منهجنا الربانى يتميز بالتيسير، فلا يُحمل المسلم فوق ما يطيق ولا يشق عليه فى التكاليف كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة٢٨٦].

وكما قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق٧]

ولقد أمر نبينا أمته بالتيسير فقال: يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا [١].

والأمثلة على يسر الإسلام كثيرة لا يتسع المجال لها، ومن ذلك التيسير فى الوضوء والصلاة، فقد شرع الله التيمم لمن لا يستطيع الوضوء، وكذلك المسح على الجورب وعلى الجبيرة، ويسر الله على المسلم صلاته فمن لم يستطع أن يصلى واقفًا فليصلِّ جالسًا، ومن لم يستطع أن يصليَ فليصلِّ على جنبه، وللمسافر أن يقصر من صلاته، وكذلك الزكاة لم تفرض إلا على المستطيع، وكذلك الحال

(١) أخرجه البخارى ٦١٢٥، مسلم ١٧٣٢.

بالنسبة للحج؛ فمن لم يستطع إليه سبيلاً سقط عنه، والصيام فرضه الله على عباده المؤمنين لما فيه من المنافع العظيمة ويسر أمره بأن أسقطه عن الطفل وعن المريض الذى لايرجى شفاؤه، وأذن للمسافر والمريض وكذلك للحامل والمرضع أن يفطروا ثم يقضوا ما فاتهم حين يتيسر لهم ذلك، إلى غير ذلك من صور التيسر الكثيرة التى تشهد بعظمة ذلك المنهج الربانى.

٣- أنه منظم للعلاقات والمعاملات بين المسلمين بعضهم ببعض، وكذلك بينهم وبين غيرهم بشكل دقيق وعادل كما هو الحال فى أحكام المواريث وأحكام البيوع وحقوق الجار وحق كل من الزوجين على الآخر وحقوق الآباء والأبناء والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة المسلم بمن ليس على دينه إلى غير ذلك من العلاقات الإنسانية والمعاملات المتعددة؛ التى لم يترك الشرع منها شيئًا إلا وبينه.

٤- إن شريعة الإسلام توافق الفطرة السوية للإنسان، وتحترم العقل والعلم بل إنها تدعو إلى إعمال العقل والتدبر والتفكر والاعتبار، وتحث على طلب العلم وتعلى من قدر العلماء ولا تقف حائلاً أمام التقدم والتطور فى شتى مناحى الحياة شريطة أن يكون ذلك التقدم والتطوير فيما ينفع الناس؛ فمنهجنا العظيم صالح لكل زمان ومكان، وفيه من الشمول والمرونة ما يجعله يستوعب كل ما يستجد من أمور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

نعمة الصدق

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة ١١٩].

فالصدق نعمة وأي نعمة حتى إن البعض يراه أعظم نعمة بعد الإسلام وكيف لا؟! وهو خلق الأنبياء والمرسلين بل إن الله -عز وجل- قدم الصدق على النبوة فى وصف أنبيائه كما ورد ذلك فى سورة مريم ألم يقل سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم٤١].

ووصف إسحاق ويعقوب عليهما السلام بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم٥٠] وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم٥٤].

وكذلك سيدنا إدريس عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم٥٦].

وكذلك كان الصدق سمة أصيلة فى خاتم الأنبياء محمد ﷺ حتى قبل أن يبعث فكان أهل مكه يصفونه بالصادق الأمين.

كما أن الصدق يأخذ بيد صاحبه إلى رضوان الله وجنته كما قال رسولنا ﷺ: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ

الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا [١] ، وأيّ أمنية للعبد المؤمن هى أغلى من رضوان الله ومن جنته؛ فعلى كل منا أن يتحرى الصدق فى كلامه وأفعاله ومكنون قلبه؛ لأن الصدق خير كله فهو فى الدنيا صون للكرامة وحفظ للهيبة والحشمة ومدعاة لسلامة القلب وراحة الضمير ودافع لكل شبهة، ومعينٌ على كل معروف، وداحضٌ للظلم وحصنٌ من الشيطان، وهو -فى الآخرة- جالبٌ لرضوان الله -عز وجل- مثقل للميزان نافع لصاحبه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ومن أقوال ابن مسعود رضى الله عنه فى ذلك:[ألاوإن شر الروايا روايا الكذب. ألا وإن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد الرجل صبيه شيئًا ثم لا ينجزه[٢].]

ويقول ابن القيم رحمه الله: [وأول ما يسرى من الكذب من النفس إلى اللسان، ثم يسرى إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد، ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق فيقلع تلك المادة من أصلها][٣].

وكذلك يقول:[إن كل عمل صالح ظاهر أو باطن؛ فمنشؤه الصدق وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب[٤]]

---

(١) البخارى ٦٠٩٤، مسلم ٢٦٠٧.

(٢) الفوائد ١٧٤.

(٣) االفوائد ١٦٢.

(٤) الفوائد ١٦٢.

فما أجمل أن يتحلى العبد بالصدق مع الله والصدق مع الناس والصدق مع النفس، وما أجمل أن يتذوق حلاوة الصدق ويدرك أنه نعمة عظيمة يجب عليه أن يشكر الله -تبارك وتعالى- عليها لكي يديمها ربه عليه ويزيده منها، ويرفع بها درجته في الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا[1].

نعمة العلم

العلم هو أول منحة ربانية تلقاها سيدنا آدم -عليه السلام- من ربه -عز وجل- بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه؛ فقال -سبحانه وتعالى- في سياق قصة خلق سيدنا آدم أبو البشر: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة٣١-٣٣].

وفي ذلك دلالة دامغة على علو مكانه العلم وعلى أهميته الكبيرة في حياة البشر، فنلاحظ في هذه الآيات تكرار كلمة العلم واشتقاقاتها، وذلك في بداية الخلق وكأن الله -تبارك وتعالى- يعرفنا أن العلم وهو من صفاته -عز وجل- هو الأساس الذي يقوم عليه خلق هذا الكون وما فيه من مخلوقات، وأنه مكون أساسي للإنسان الذي جعله الله -عز وجل- خليفة في الأرض، فلولا العلم لما أدرك الإنسان غاية

(١) الشعراء ٨٤.

خلقه، ولما عبد الله -عز وجل- ووحده إذ كيف يعبد من لا يعرف، فمعرفة الإنسان بربه -سبحانه- هى الطريق لتوحيده وعبادته.

فكلما ازداد الإنسان علمًا ازداد إيمانًا بربه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر٢٨].

فأهل العلم الصحيح المستوى الذى لا تخالطه انحرافات الفكر والعقيدة هم أهل الخشية والمراقبة لله -عز وجل- فهم بما أعطاهم ربهم من علم يدركون مدى قدرة الله -عز وجل- وعظمته واستحقاقه وحده سبحانه للعبادة دون شريك أو ند فيورثهم ذلك العلم انكسارًا وذلاً وتواضعًا لخالقهم -جل وعلا- كما يدركون أن ذلك العلم فضل من ربهم ونعمة، يجب أن يقيدوها بالشكر فهم لاينسبون العلم لأنفسهم كما يفعل أهل الجهالة، فالجاهل هو من يعتقد فى نفسه أنه قد علم كل شيء، وأن علمه ذلك نتاج عقله وذكائه، فذلك مع تماديه فى غيه يجعل الله -عز وجل- إلهه هواه ويضله على علم.انظر إلى قارون حين قال:إنما أوتيته على علم عندى فخسف الله به وبداره الأرض.

والفرق بين الفئتين واضح جلي: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر٩].

فالله -عز وجل- ينفى المساواه بين من يعلم ومن لا يعلم، والمقصود بالعلم هو كل علم نافع يرتفع به إيمان المرء، ويزيده يقينًا بربه -عز وجل- سواء أكان علمًا دنيويًا ينتفع به الناس أو علمًا شرعيًا؛ المهم أن يكون العبد قاصدًا به وجه ربه -عز

وجل- مدركًا أنه لولا فضل الله عليه لما أدرك من ذلك العلم شيئًا فالله -سبحانه- يقول لنبيه وهو أنقى الناس وأخشاهم لربه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء١١٣]

ويقول -عز وجل- فى أول آياته نزلت على قلب المصطفى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق١-٥]

فالعلم من فيض الله -عز وجل- علينا وإنعامه، وبه يرفع الله أقوامًا، ويضع آخرين وبه يجعل الناس درجات فى الدنيا والآخرة قال عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة١١]

وأهل العلم هم صفوة الخلق، وهم سفراء الله -عز وجل- فى الناس وهم ورثة الأنبياء، وهم من فضلوا على العُبَّاد؛ حيث إن العابد خيره يعود عليه وحسب، أما العالم فإن خيره يتعدى إلى غيره، وقد يهدى الله كثيرًا من عباده فقد قال ﷺ(١): مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ

(١) أحمد ٥/١٩٦ رقم ٢١٧٦٣، أبو داوود ٣/٣١٧ رقم ٣٦٤١، الترمذى ٥/٤٨، رقم ٢١٢٨.

الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَرِثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرِثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ.

فعلى كل من رزق نصيبًا من العلم أن يشكر ربه -عز وجل- على هذه النعمة الجليلة، وعليه أن يسعى لنشر ذلك العلم النافع؛ مبتغيًا بذلك وجه الله وأن يحذر أن يغتر بعلمه أو أن يطغى به أو أن يستخدمه فيما لا يرضى الله -عز وجل- حتى يزيده الله من فضله، ويرفع قدره فى الدنيا والآخرة، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا يا رب العالمين.

علماؤنا فى الدروب مشاعلُ ... تنير سُبلاً للفلاح فأقبلوا
إلى مجالس علمهم تلك التى ... لها ملائكة السماء تُظللُ
كانوا على مر الزمان دليلنا ... طوبى لمن سلكوا الطريق ليكملوا
حصون هذا الدين هم حراسها ... غيثٌ على نار الجهالة يهطل
أهل العلوم من الخلائق صفوة ... لهم علينا الحق أن يتبجلوا
حملوا أمانة ذا الكتاب وبينوا ... بسنة المختار ما قد يُجمل
من بين خلق الله أهل الخشية ... بفكرهم فى الكون كم يتجولوا
كم غاصوا فى بحر العلوم وأخرجوا ... درًّا به تاج الزمان يُكلل
لا خير فى قوم إذا لم يعلموا ... أقدارهم وللرؤوس يُقبلوا
فالعقل في تلك الرؤوس قد ارتقى ... وبه على كل العباد تفضلوا

نعمة تحبيب الإيمان لقلوبنا

قال الله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ*فضلًا من الله ونعمة واللهُ عليمٌ حكيم﴾ الحجرات[٧-٨].

نعم إن ذلك فضل من الله ونعمة، فالإيمان مقرُّه قلب العبد، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء فمن جعل الله -عز وجل- قلبه محبًّا للإيمان متذوقاً لحلاوته متتبعًا لكل ما من شأنه زيادته، فذلك فضل عظيم ونعمة كبرى من الله -عز وجل- يجب على من يعطاها أن يشكر ربه عليها شكرًا كثيرًا أن جعل قلبه مستقبلاً لكل خير منكرًا لكل شر، وذلك هو القلب السليم؛ الذى يكون كالأرض الطيبة التى لا تنبت إلا أشجار الخير والبر والإيمان.

فالله -عز وجل- إن أراد بالعبد خيرًا جعل الإيمان بكل معانيه وصوره محببًا إليه يراه جميلاً فى كل حالاته؛ يمتلئ به قلبه حتى إنه لا يترك فيه مكانًا لسواه.

وإذا بات القلب ممتلئًا بالإيمان والطاعة فلن يجد الكفر والعصيان والفسوق فراغًا فيه؛ ليتمكن منه بل إن الله -عز وجل- يجعل ذلك القلب ينفر من المعاصى ويراها بغيضة إلى نفسه، وبذلك يكون ذلك العبد من الراشدين الذين يهتدون -بفضل ربهم- إلى ما ينفعهم، ويميزون بين الحق والباطل، ويتبعون الصراط المستقيم؛ الذى يبلغهم رضوان الله، ولا يحيدون عنه فأي نعمة، وأي فضل من عليم حكيم.

نعمة التوبة

الله -عز وجل- لطيف بعباده رحيم بهم لعلمه -عز وجل- بضعفهم فهم خلقه، وهو أعلم بتكوينهم البشرى الذى من مقتضياته أنهم يصيبون ويخطئون فالنفس الأمارة والهوى والشيطان جميعها تؤثر فى أفعالهم وقوة التأثير تختلف باختلاف درجة الإيمان وباختلاف الهمة فى مقاومة تلك المؤثرات.

إذن فالخطأ من صفات الإنسان ولا يستطيع امرؤ أن يزعم أنه لا يخطئ، ولا يقترف ذنبًا؛ فالرسول ﷺ قال: كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُون[1].

فالتوبة -إذن- حاجة ملحة لكل إنسان لا غنى له عنها؛ وإلا فأين يذهب المذنبون والعصاة، وأي باب يطرقون لتطهير أنفسهم والرجوع إلى صراط ربهم المستقيم.

من هنا ندرك أن التوبة نعمة عظيمة ورحمة تامة ولطف عميم من الله -عز وجل- امتن به على عباده؛ ليس هذا فحسب بل إنه -سبحانه- يعرفهم طريق التوبة ويهديهم إليها ويوفقهم ثم يتقبلها منهم، بل ويثيبهم عليها فأي كرم يدانى ذلك الكرم الربانى.

والتوبة تجب على كل مسلم فى كل وقت، ولا يشترط لها حدوث ذنب أو معصية؛ بل إن النبى -صلى الله عليه وسلم- المعصوم من ربه أتقى الخلق وأطهرهم وأعبدهم لله كان دائم الاستغفار والتوبة لربه -سبحانه- كما أن الله -عز وجل-

---

(١) أحمد (١٣٣٩٠) والترمذى (٢٤٩٩) وقال الشيخ الألبانى: حسن.

أمرنا بذلك فى آيات عديدة من كتابه العزيز حيث قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور٣١] وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم٨] فالأمر بالتوبة لم يكن لفئة دون فئة، و لم يكن للعصاة فقط؛ بل إن النداء للمؤمنين -أيضًا- فالجميع يحتاج للتوبة ليس لمغفرة الذنب فقط بل لما فيها من الخير الكثير، وأجل ذلك الخير هو محبة الله -عز وجل- فهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة٢٢٢].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله[1] : [إن التوبة توجب للتائب آثارًا عجيبة من المعاملات التى تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر؛ فإنه إذا تاب إلى الله قبل الله توبته؛ فرتب له على هذا القبول أنواعًا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب فى بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها].

أي أن الخير ليس فى التوبة وفقط؛ ولكنه يتعداها إلى ما يليها من آثار محمودة وبركات ملموسة مثل المحبة والرقة وشكر النعم والرضا عن الله وكثير من النعم التى تترتب على قبول الله -عز وجل- التوبة من عبده.

والعبد إذا أحدث توبة نصوحًا بكل أركانها من إقلاع عن الذنب وندم عليه وعزم على عدم العودة إلى ذلك الذنب؛ فإنه يكون بعد التوبة أفضل منه قبل

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٦/١).

التوبة، ومن يتبنون هذا الرأى لهم حجتهم كما ورد ذلك فى كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم حيث قالوا: [فالذنب بمنزلة المرض والتوبة بمنزلة العافية والعبد إذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته رجعت صحته إلى ما كانت عليه؛ بل ربما رجعت أقوى وأكمل مما كانت عليه؛ لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة؛ فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام، ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرًا مما كانت وأكمل[1]].

ومن تمام شكر تلك النعمة أن يعلم العبد أن الله -عز وجل- هو الذى يوفقه للتوبة ويرشده إلى سبلها؛ إن علم فيه خيرًا وعزمًا وسعيًا جادًّا فى مجاهدة نفسه ورغبة فى العودة إلى ربه -سبحانه- ثم هو يقبلها منه، ويريه من بركاتها الشيء الكثير؛ أي: إنه -سبحانه- هو المتفضل أولاً وآخرًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة١١٨] فلنحمد الله -عز وجل- أن جعل لنا التوبة بابًا لا يوصد، وأملاً يحول بيننا وبين اليأس من رحمته، ونصرة لنا على إبليس اللعين، وحصنًا يلوذ به العصاة، وهو الغنيّ عنا -سبحانه- فلا تضره معاصينا، ولا تنفعه طاعتنا.

قد جئت باب العفو يحدوني الرجا ... أدعوك يا رحمن فى قلب الدجى
اغفر لعبدك ما جنته يمينه ... فبحار جودك من أتاها قد نجا
يا رب مل القلب من طول الجفا ... ولكم بجهلٍ للدنايا قد هفا
كم بات من درب الهلاك على شفا ... فَأَجِرهُ يا رباه أنت المرتجى

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٣٥٦).

كم بت فى بحــر الأمـــانى ســابحًا ... لا.. لا أرى لجموح نفسى كابحًــا
فلا أجيب لسان صـــدق ناصـــحًا ... ولست أدرك فى حيـــاتى منـــهجا
لا تطرُدَنِّى من رحابـــك يـــا مجـــير ... فمن سواك يجبر القلـــب الكســـير
وإن عفوت فـــلا أبـــالى بالمصـــير ... فاجعل لنا من كل ضـــيق مخرجًـــا
حمـــداً لـــك اللـــهم أن عـــافيتنى ... من ظلم نفس والســـبيل هـــديتنى
مـــن بعـــد طـــول الصـــبر عنـــك ... منحتنى قلبًا جديدًاباليقين مُســـرَّجًا

نعمة أن الله هو الحى القيوم

قال الله تعالى: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥]

وفى تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير: [الله لا إله إلا هو إخبار بأنه هـــو المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، (الحى القيوم) أي: الحى فى نفسه الذى لا يموت أبدًا القيم لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره، وقوله: لاتأخذه سنة ولا نوم أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه؛ بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شـــيء ولا يخفى عليه خافية (١)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/٢٣٠)

وتلك نعمة من الله -تبارك وتعالى- على عباده؛ فكونه -عز وجل- حيًّا لا يموت، وقيومًا على عباده فذلك من كمال التنزيه له -سبحانه- عن النقص، وذلك الكمال يورث الأمن والطمأنينة فى قلب العبد المؤمن ليقينه بأن للكون ربًّا قيُّومًا؛ لا يغفل ولا ينام وما من ذرة فى الأرض ولا فى السموات إلا يعلمها، وكل شيء يجرى فى هذا الكون بقدره وتحت سمعه وبصره لا يشغله سمع عن سمع ولا تختلط عليه اللغات، ولا يعجزه أمر مهما عظم، ولا يستغني مخلوق عنه -سبحانه وتعالى- ولا يجرى فى الكون شيء مهما دق إلا ويحيط به علمًا حتى حديث النفس.

وذلك من تمام المنة علينا وعلى الناس أجمعين؛ بل وعلى كل المخلوقات التى يشملها ذلك الفضل العظيم والتى تفتقر إلى ربها على الدوام، فلولا قيوميته -تبارك وتعالى- لفسدت السموات والأرض ولغاب العدل والقسط، ولاختل ميزان الكون فلك الحمد يا ربنا على أنك أنت ربنا.

نعمة أن الرزق بيد الله

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود٦]

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون٧]

أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره].

وحريٌّ بنا أن نذكر أن الرزق لا يقتصر على المال كما يظن البعض بل إن الرزق هو كل ما يهبه المولى -تبارك وتعالى- للإنسان؛ فالصحة رزق والأولاد رزق والزوجة الصالحة رزق، وكذلك العلم والحكمة والفهم والتقوى والطاعة والرضا والصبر والشكر؛ كل ذلك أرزاق من الله وغيرها كثير، فسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض ومن يقدر الأرزاق بحكمة بالغة وكرم عميم لا يكون إلا لرب كريم

نعمة أن الحساب بيد الله

كما أن الله -عز وجل- جعل الرزق بيده وحده رحمة بعباده وتفضلاً، كذلك جعل الحساب.

فالله -وحده- هو من يحاسب العباد على أعمالهم؛ فيثيب المحسن ويجازى المسئ، وحساب الله لعباده فيه من العدل أكمله، ومن الرحمة أتمها، فهو الحكم العدل، وهو الغفور الرحيم؛ فلا يُظلم عنده أحد، ولا تُوصد أبواب رحمته وكرمه، يجزى من أحسن جزاءً مضاعفًا، ويجزل له العطاء، ويربى له أعماله الصالحة، ويزيده من فضله ويجازى المسئ بقدر ما أساء وقد يتجاوز عنه ويفتح له باب التوبة، وإن تاب توبة نصوحًا بدَّل له سيئاته حسنات كما قال سبحانه: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[القصص٨٤] وقال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان٧٠]

فأين يجد المرء لهذا الفضل نظيرًا؟ والله لا يكون ذلك إلا من رب كريم، بعباده رؤوف رحيم، يوفقهم للطاعة ثم يثيبهم عليها كأحسن ما يكون الثواب، ويتجاوز عن معاصيهم إن هم تابوا إليه؛ يفعل ذلك وهو -سبحانه- غنيٌّ عنهم لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم كما قال سبحانه في الحديث القدسي[1]: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ

(١) (صحيح): مسلم ٢٥٧٧.

اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. فلنحمد الله -عباد الله- على أن جعل الحساب بيده وحده لا ينازعه فى ذلك أحد؛ لأن العدل المطلق لا يكون إلا مع الحكم العدل الذى لا يختل ميزانه، العليم الخبير الذى لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، الغفور الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء، الغنى عن عذابنا، العفو عن مقدرة المتفضل على عباده.

نعمة الجنة

الجنة إنها غاية الغايات وأغلى الأمنيات، وكيف لا وهى الدار الباقية الخالدة للمتقين، والتى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

الجنة التى يسعى لها الصالحون، ويبذلون من أجلها الغالى والنفيس، وكيف لا يفعلون وفيها حياتهم الحقيقية إن هم كانوا من أهلها، وكيف لا يفعلون والمصير إما إلى جنة وإما إلى نار؟! وذلك المصير محتوم لا فرار منه.

فالجنة درة النعم وغاية الكرم من رب العالمين على عباده المحسنين، يدخلونها بفضله ومنته؛ لأن أعمالهم مهما كانت لا تساوى ما أعد لهمْ الله -عز وجل- من نعيم فى جنات الخلد، ولكنه الرب الرحيم والملك الكريم الذى يجزى المتقين الصالحين بغير حساب، ويربى لهم أعمالهم ويتغمدهم برحمته على ما كان منهم من تقصير.

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تتحدث عن وصف الجنة، وما فيها من نعيم، وكيف أنها فضل عظيم من رب العالمين كثيرة جدًّا لا يتسع المجال لذكرها،

ومنها آيات مجملة كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف٧١]

وقوله عز وجل عن حال أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر٧٣-٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران١٨٥]

فالفوز كل الفوز لمن نجا من النار ووطئ الجنة بقدميه، فما بالك بمن يدخلونها قبل أن ينتهى الحساب فى أرض المحشر؟! وما بالك بمن يدخلونها بغير حساب ولا سابقة عذاب؟! وما بالك بأهل الفردوس الأعلى الذى سقفه عرش الرحمن عز وجل؟!.

فاللهم ارزقنا الجنة وكل ما يقرب منها من قول أو عمل، وباعد بيننا وبين معاصيك كما باعدت بين المشرق والمغرب، وعاملنا بالفضل لا بالعدل يا أرحم الراحمين.

نعمة تكريم الله عز وجل للإنسان

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء٧٠]

فالإنسان قد كرمه الله -عز وجل- إكرامًا لم يكن لغيره من المخلوقات التي يمتلئ الكون بأنواعها وأشكالها المتباينة؛ والتي لا يستطيع أحد أن يحصيها إلا بارئها -سبحانه- ليس هذا فحسب بل إن الله -عز وجل- جعل الكون كله بما فيه مسخرًا للإنسان، وحسبه تكريمًا أن الله خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأمر ملائكته أن يسجدوا له ولو لم يكن من تكريم الله للإنسان إلا ذلك لكفاه؛ ليشكر الله في كل وقت على تلك النعمة العظيمة، ولو تعرضنا باختصار لصور تكريم الله -عز وجل- للإنسان لوجدنا أن منها على سبيل المثال:

- أن الله عز وجل خلق الإنسان في أجمل الصور وأبدعها وأقومها كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين٤] وكما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار٦-٧] فالإنسان هو أرقى المخلوقات على الأرض.

- أن الله -تبارك وتعالى- ميز الإنسان بالعقل والتفكير؛ لكي يهتدي به إلى ربه من خلال الأيات الكونية والإعجاز الرباني في كل ما يحيط به كما أن العقل هو مناط التكليف ولولا العقل لما كان للحياة على الأرض فائدة، ولما صلحت ولا عمرت ولما نزلت الكتب السماوية، ولا أرسل الرسل الكرام ولا جعل الحساب

ولا خلقت الجنة والنار؛ لأن الإنسان بلا عقل لا فرق بينه وبين غيره من المخلوقات.

- أن الله -عز وجل- كرم بنى آدم على غيرهم من المخلوقات بالفضيلة؛ التى تكبح جماح النفس البشرية وتقيدها بشرع الله -عز وجل- وبأمره ونهيه فلا يستطيع الإنسان أن يفعل كل ما تهوى نفسه أو أن ينقاد وراء شهواته وغرائزه بلا ضابط؛ لأنه لو فعل لكان كالأنعام بل أضل، فالإنسان صاحب الفطرة السوية هو من يحيا فى سياج من الشرع والأخلاق والفضائل؛ التى تجعل منه مخلوقًا راقيًا يستحق أن يكون خليفة فى الأرض.

ومن صور التكريم -أيضًا- أن الله- عز وجل- رزق الإنسان القدرة على البيان كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن٣-٤]

فالإنسان هو الوحيد بين المخلوقات الذى له القدرة على التعبير عما يريد وما يشعر.

وذلك البيان بدونه لم يستطع الإنسان التعايش والتفاهم مع غيره من البشر، ولما استطاع الرسل أن يبلغوا رسالات ربهم إلى الناس، ولما عرف البشر كيف يعبدون ربهم؟! ولما ذكر الله -عز وجل- فى الأرض!.

وكرم الله الإنسان -أيضًا- بالستر؛ فترى الإنسان هو الوحيد الذى يستر جسده بأنواع اللباس المختلفة؛ إكرامًا لآدميته وسترًا لعورته، وتجميلاً لمظهره كما

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف٢٦]

وهناك صور عدة لتكريم بنى آدم على سائر المخلوقات لا يمكننا إحصاءها، ولكن علينا أن نحمد الله -عز وجل- حمدًا موصولاً على تلك النعمة العظيمة؛ نعمة التكريم، كما علينا أن نسعى جاهدين؛ لكى نكون أهلاً لهذا التكريم من الله عز وجل.

نعمة الأمن والأمان

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام٨١-٨٢]

فالأمن نعمة ينعم الله بها على عباده، وهى نعمة جليلة لا يستشعر قيمتها وقدرها إلا من ابتلى بفقدها والآية الكريمة تبين لنا أن الأمن والأمان إنما يكون لمن آمن بالله -عز وجل- إيمانًا صادقًا؛ لا يخالطه ريب ولا ظلم.

فمن امتلأ قلبه إيمانًا بربه -تبارك وتعالى- وغدت حياته كلها عباده لله -عز وجل- وكان يقينه فى الله يقينًا راسخًا لا تغيره حوادث الأيام، فذلك لا محالة يكون ممن يتمتعون بنعمة الأمن لا سيما الأمن الداخلى الذى يعم نفسه وقلبه؛ لأنه حينها يدرك أن ما يصيبه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فكل ما فى

الكون يسير بقدر الله -عز وجل- قبل أن يخلق الخلق؛ فالفريق الذى يهتدى بتوفيق الله -عز وجل- إلى ذلك الفهم فهو المستحق للأمن.

أما الفريق الآخر ممن أشركوا بربهم ولم يسلموا وجوههم إليه -سبحانه- فتراهم لا يشعرون بتلك النعمة العظيمة؛ لأنهم شغلوا بالدنيا حتى صارت أكبر همهم ومبلغ علمهم، فهم فى حالة خوف دائم يخافون على أموالهم، وعلى ما يمتلكون من أعراض الدنيا الزائلة ويخافون من الموت؛ لأنه بالنسبة لهم يمثل نهاية أمرهم فتجدهم أحرص الناس على حياة، يجتهدون فى التمتع بحياتهم فى الدنيا بكل السبل، ورغم ذلك تجدهم لا يشعرون بالسعادة الحقيقية، والتى من أهم أركانها الشعور بالأمن والطمأنينة.

ولقد امتن الله -عز وجل- على عباده بتلك النعمة فى العديد من الآيات القرآنية الكريمة موضحًا لهم -سبحانه- أن الأمن نعمة تستوجب الشكر الجزيل فقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش٣-٤].

وقال سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حين دعا ربه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة ١٢٦] يقصد مكة المكرمة فدعوة الخليل كانت بالأمن لتلك البقعة المباركة، مما يدل على عظم تلك النعمة الجليلة، ولقد استجاب المولى -عز وجل- دعاء خليله فجعل أرض الحرم يغشاها الأمن والأمان على مر العصور كما ذكر ذلك سبحانه

فى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت٦٧]

فبين الله -سبحانه وتعالى- أن الأمن نعمة يجب ألا يكفر بها من أعطاه الله إياها؛ بل يجب عليه أن يعترف بها ويؤدى شكرها.

ومن الآيات التى توضح لنا أن الأمن نعمة يعطيها المولى -عز وجل- أهل الإيمان الذين يشكرون الله عليها، ويترعها من أهل الكفر والنكران ما ورد فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل١١٢]

ولقد نزلت فى بنى إسرائيل وكذلك ما ذكره الله -عز وجل- من أنباء (سبأ) فى القرآن الكريم؛ حيث كانوا يعيشون فى رغد من العيش، وقراهم كانت متقاربة وأشجارها مثمرة ومياهها وفيرة؛ حتى إن المسافر يستطيع أن يجد زادًا وماءً ومستراحًا فى أي مكان شاء؛ فلا يجد مشقة السفر التى قد يجدها غيره، كما أن طرقهم كانت آمنة للسيارة، وإن طالت مسافة السفر وزمنه، ورغم ذلك كله فقد جحدوا نعم الله عليهم و لم يشكروه كما أمرهم كفرًا وإعراضًا؛ فكان الجزاء من الله -عز وجل- أن سلبهم تلك النعم التى لم يقيدوها بالشكر.

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن الأمن نعمة يمن الله بها على من يستحقها من أهل الإيمان والشكر، وقد يمن بها على قوم ليبتليهم، فإن شكروا زادهم، وإن جحدوا وكفروا نزعها منهم وأبدلهم مكانها خوفًا، ولقد جمع رسول الله أسباب

الحياة الطيبة فى الدنيا فى قوله صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا[1].

وقد يقول قائل: إن هناك الكثير من بلاد الإسلام لا يشعر أهلها بالأمن بل قد يحيون فى حالة من الخوف الدائم؛ الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى الرعب كما هو الحال فى فلسطين الحبيبة أو فى العراق أو غيرهما من بلاد الإسلام، فنقول: إن هؤلاء هم من أهل الابتلاء فقد يبتلى الله -عز وجل- المؤمنين؛ ليمحصهم وليميز الخبيث من الطيب كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد ٣١]

وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٥]

فالله -عز وجل- قد يبتلى قومًا بشيء من الخوف وضيق الرزق ليس عقابًا لهم على معاصيهم؛ ولكن ليعلم المجاهدين فى سبيله وليعلم الصابرين على قضائه فيجزيهم بذلك الصبر والجهاد ما ينسيهم ما لاقوه من عناء ومشقة ويرفعهم درجات لا يعلمها إلا هو -سبحانه- فى جنات لا خوف فيها ولا نصب.

فاللهم ارزقنا الأمن والعافية فى الدنيا والآخرة، وامنحنا قلوبًا مطمئنة بذكرك، واملأ بلاد المسلمين أمنًا وأمانًا.

---

(١) (حسن): الترمذي ٢٣٤٦، صحيح الجامع ٦٠٤٢.

نعمة إقامة الحدود

لا شك أن المجتمع البشرى منذ بدأ الخليقة، وحتى يومنا هـذا وإلى أن تقـوم الساعة مجتمع يحوى أنواعًا متباينة من البشر يتصارع فيه الخير والشر على الدوام؛ فالبشر ليسوا كالملائكة؛ الذين جُبلوا على طاعة الله وعبادته بل هم على درجات مختلفة من الإيمان والهمة واليقين؛ فمنهم من تغلب عليه فطرته القويمة التى فطره الله -عز وجل- عليها فتراه عابدًا لله متبعًا للأمر مجتنبًا للنهى مقيمًا لشرع الله -عـز وجل- مراقبًا له فى كل أحواله.

ومنهم من يكون إلهه هواه وشيطانه يسيره كيف يشاء لا يراعى حرمـة، ولا يبالى بما يفعل من أمور تنافى الفطرة، وتغضب الله -عز وجل- وهناك صنف بين الصنفين.

وما دام الله -عز وجل- قد خلق الناس على ذلك، وهو أعلم بمن خلق وأعلم بما يصلحهم، فمن رحمته -تبارك وتعالى- شرع لهم حدودًا وأمرهم بإقامتها حفظًا للحرمات وللحقوق وإنصافًا للمظلوم وردعًا للظالم؛ حتى تستقيم الحيـاة وإلا فسوف تتحول إلى مجتمع همجى أشبه ما يكون بالغابة التى تقوم على مبدأ أن البقاء للأقوى.

فالحدود نعمة من الله -عز وجل- على خلقه، ولو أنها أقيمت كما أرادها الله -عز وجل- منا لاختلفت صورة الحياة؛ لأن الله ما شرع لنا أمرًا إلا وفيه صلاح أمرنا، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة١٧٩]

[ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله فى تفسير تلك الآية: يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس[١]].

أي: أن حكم الله -عز وجل- بأن يُقتل القاتل فيه حكمة كبيرة من الله بل وفيه رحمة، وإن بدا الأمر على عكس ذلك للوهلة الأولى، ذلك أنه لو علم من ينوى القتل أنه إن فعل فسوف يقتل كان ذلك مانعًا له من القتل، فيكون فى ذلك حياة للنفوس التى قد تزهق بالقتل.

وكذلك الحال بالنسبة للسارق فلو أنه علم أن حد الله سيقام عليه إن سرق، والحد هو قطع اليد؛ فلا بد أنه سيرتدع، وكذلك الحال بالنسبة لحد الزنا وحد شرب الخمر إلى غير ذلك من الحدود المبينة فى كتاب الله -عز وجل- وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- والخلاصة أن إقامة الحدود التى شرعها الله -عز وجل- لعبادة لها من الفوائد والحكم ما قد تعجز عقولنا عن إدراكه ولو أردنا أن نذكر جانبًا منها لقلنا إنها:

- تحفظ الحقوق وتصون الحرمات مما يسهم بشكل واضح فى صلاح المجتمع.
- إنها رادعة لمن تسول له نفسه أن يأتى بفعل يوجب القصاص.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/١٥٧)

- إن فيها تطهيرًا لمن اقترف جرمًا وذلك بتعجيل العقاب له فى الدنيا؛ حتى يلقى الله -عز وجل- مطهرًا من ذلك الجرم وعقاب الدنيا أهون من عقاب الآخرة.

- إنها تكون سببًا للاعتبار وزيادة التمسك بحدود الله -عز وجل- من قبل أهل الإيمان حيث تزداد تقواهم لله ويقينهم بعظيم حكمته -سبحانه- فى كل ما شرع لهم.

كما أنها تكون مدعاة لهم لشكر الله -عز وجل- على ما أنعم عليهم به من توفيق للطاعات وعصمة من اتباع الهوى والشيطان.

نعمة إخفاء الأجل

من عظيم فضل الله على عباده وجميل حكمته -عز وجل- أنه أخفى عنهم آجالهم، وجعل ذلك فى علمه -سبحانه- وتلك نعمة من الله على عباده لو تأملها كل ذي لُبٍّ لوجد فيها حكمة عظيمة، فالله -عز وجل- لو أعلم كل امرئ بمقدار عمره وبساعة انتهاء أجله فكيف تكون الصورة؟!.

من المؤكد أن الصورة ستختلف اختلافًا بينًا؛ فالإنسان لو علم أن عمره فى هذه الدنيا قصير كان فى ذلك مدعاة لأحد أمرين؛ إما أن يجتهد فى الطاعات والعبادات بشكل يطغى على دوره في إعمار الأرض والسعى على الرزق، فتراه زاهدًا فى الدنيا وما أحل الله له فيها يعيش فى حالة من الترقب والتربص، ينتظر الأجل يملؤه الخوف، ولا يجد الأمل إلى نفسه سبيلاً، والأمر الثانى أنه إن كان من محبِّي الدنيا ونعيمها الزائل انغمس فى شهواته وملذاته، وأصابه اليأس من إمكانية التوبة والعودة

إلى ربه وعمل الصالحات التي توصله إلى رضوان الله في هذه المدة القليلة، فيختار أن يأخذ من الدنيا ما يستطيع.

وعلى الجانب الآخر فإن المرء إن علم أن عمره طويل في هذه الدنيا، فقد يجعله ذلك يفعل كل ما يوافق هواه من معاصٍ وذنوب غير مبال بالتمادي في ذلك؛ فهو مطمئن أن العمر ما زال فيه الكثير، وكأن لسان حاله يقول عندما يقترب الأجل: أتوب وأعمل الصالحات؛ التي توصلني للجنة، وبذلك أكون قد أخذت من الدنيا والآخرة بحظ وافر.

وفي كل تلك الأحوال فإن الفساد يكون عظيمًا؛ لأن الله -عز وجل- لا يرضيه أن يقنط العبد من رحمته ولا يرضيه -سبحانه- أن ينقطع العبد للعبادة ولا يسعى في عمارة الأرض كما لا يرضيه -سبحانه- أن يرجئ العبد توبته؛ حتى يفرغ من قضاء شهواته وملذاته التي يداوم عليها، ويصر على فعلها.

فالله سبحانه لا يقبل التوبة إلا ممن فعل الذنب وهو يجهل حكمه، أو أنه يعلم أنه ذنب ولكنه فعله عن ضعف في نفسه أو في إيمانه، ولكنه من داخله ينكره ويتمنى أن لا يعود إليه وفي نفسه شيء من الخشية والخوف من الله -عز وجل- ولا تتولد تلك الخشية إلا إذا علم الإنسان أن الموت قد يباغته في أي لحظة، وأنه بيد الله -عز وجل- الذي له غيب السموات والأرض.

إذن فلنحمد الله -عز وجل- على أنه -سبحانه- أخفى عنا آجالنا؛ حتى نسعى في دنيانا بالأمل، ونسعى لأخرانا بصالح العمل.

نعمة النسيان

النسيان هو من الصفات التي جعلها الله -عز وجل- في بني آدم، ونزه نفسه -سبحانه- عنها؛ لأنه نوع من النقص وربنا منزَّهٌ عن كل نقص قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه٥٢]

والنسيان في بعض الأحيان يكون نعمة عظيمة، وفي أحيان أخرى يكون عكس ذلك؛ بمعنى أن الإنسان إن كان ديدنه النسيان في كل شيء فذلك أمر مذموم، وإن كان ديدنه التذكر والحفظ على الدوام فذلك مذموم أيضًا، ولكن تمام النعمة من الله -عز وجل- أن يهب الإنسان التذكر والنسيان كلاً في موضعه.

ومن الأمور التي يعتبر فيها النسيان نقمة على صاحبه أن ينسى أمور دينه أو غاية خلقه أو أن ينسى ما يجب عليه تجاه ربه -عز وجل- من اتباع للأمر واجتناب للنهي أو أن ينسى تفاصيل العبادات؛ التي لا تصلح بدونها أو نسيان الإحسان والتنكر لصاحبه: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة٢٣٧] وكذلك نسيان الإساءة وعدم الحذر ممن أساء، وكذلك نسيان العلم بكل صوره وأشكاله، ونسيان ما يمر به من تجارب وعدم أخذ العبرة منها، ونسيان نعم الله -عز وجل- وبالتالي عدم أداء شكرها إلى آخر تلك الأمور التي لا يحمد فيها النسيان.

أما الوجه الآخر وهو كون النسيان نعمة في بعض الأحيان بل ومن أجل النعم، فمن ذلك ما يكون من نسيان ما قد يألفه المرء من ذنوب أو معاصٍ وكذلك نسيان الحزن والألم بعد مرور فترة من الزمن على ما أصابه من مصائب، والتي قد

يتصور وقت حدوثها أن تلك نهاية العالم وأن الحزن والحسرة هما رفيقاه طيلة حياته، فالنسيان فى تلك الحالة هو نعمة ورحمة من الله عز وجل.

ومن ذلك -أيضًا- المواقف والذكريات التى قد يوقظ تذكرها الضغائن والأحقاد وقسوة القلوب.

وكذلك نسيان أو لنقل تناسى ما يكون من المرء من أعمال الخير والبر والطاعات لا سيما ما يخفى منها عن أعين البشر؛ لأن فى ذلك مدعاة لتمام الإخلاص وعدم الانشغال بما تم عمله، والنظر فيما يجب أن يعمل؛ لأن الإنسان لو ظل على الدوام يتذكر ما كسب من الأعمال الصالحات لأصابه العجب ولشغله ذلك عن المزيد من تلك الأعمال التى تقربه من ربه عز وجل.

كما أن النسيان قد يكون نعمة لحافظ القرآنِ الكريم، ولكن فى هذه الحالة نقصد النسيان بشكل جزئى أي: (التفلت)؛ لأن ذلك يدفعه إلى المداومة على القراءة والمراجعة وتثبيت الحفظ مرارًا وتكرارًا فيكون ذلك زيادة له فى الأجر بإذن الله.

وعلينا أن نعلم أن النسيان كما أنه نعمة من الله فهو -أيضًا- بقدر الله -عز وجل- ولا يكون إلا لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه؛ فقد يحزن المرء على نسيان أمر من الأمور أو موعد يرى أنه من الأهمية بمكان، ويتألم لذلك كثيرًا؛ ثم يدرك بعد ذلك أن الخير كل الخير فيما قدر الله له من ذلك النسيان فيحمد الله -عز وجل- على ذلك.

ولنعلم أن النسيان منه ما يكون من فعل إبليس -عليه لعنة الله- ليصرف العبد المؤمن عن طاعة ربه -عز وجل- أو يفوت عليه خيرًا؛ لذلك يجب علينا أن نستعيذ بالله من همزات الشياطين، ونكون على يقين تام أن الشيطان ليس له من سلطان على من كان فى معية ربه عز وجل.

فلنسأل الله -عز وجل- أن يصرف عنا غواية الشيطان ووساوسه، وألا يجعلنا ممن ينسيهم ذكر الله -عز وجل- ونسأله إن نسينا أن يرزقنا سرعة الرجوع إليه، وأن يمنحنا صفحه وغفرانه، وأن يجعلنا ممن يستجيب لأمره حين يقول: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام٦٨]

ونعوذ به -سبحانه- أن نكون ممن ينسون آياته، ويعرضون عن ذكره فينساهم -سبحانه- يوم البعث والحساب قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه١٢٤-١٢٦]

واجعلنا يا ربنا ممن قلت فيهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة١٥٢] وكفى بذكرك لعبدك يا ربنا من نعمة لا يسعنا شكرها.

نعمة الوقت ونعمة الإمهال

عمر الإنسان ما هو إلا أيام وساعات ما يمضى منها لا يعود أبدًا، وما يتبقى منها لا يعلم مقداره إلا الله؛ فالعمر ينتهى فى لحظة وحينها يكون مصير العبد مرهونًا بما قدم من أعمال فى حياته طالت أم قصرت.

والله -تبارك وتعالى- يحاسب العبد على عمره فى الدنيا كيف أفناه؟ وفى أى شيء قضاه كما قال رسول الله ﷺ [١]: لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ.

فالأسئلة التى تحدد مصير العبد يوم الحساب والتى على إثرها يكون العبد إما من الناجين -نسأل الله أن تكون منهم- أو من الهالكين -نعوذ بالله من ذلك- منها سؤالان يختصان بالعمر والوقت.

فالأمر جد خطير، وعلى كل منا أن يحاسب نفسه على ما ضيع من أوقات ويحذر من تفلت العمر من بين يديه دون أن يشعر ويحذر من طول الأمل مع قلة العمل؛ وليحمد ربه كلما طلعت عليه شمس يوم جديد على أن مد له فى عمره ليمهله؛ فالإمهال من الله نعمة أخرى تستوجب الشكر؛ لأن الله حين يمهلك فهو -سبحانه- يتفضل عليك بأن يجعل لك فرصة للرجوع إليه والتوبة من الذنوب فى دار العمل قبل أن تنتقل إلى دار الجزاء التى لا ينفع فيها إلا ما قد سلف.

فكون الله -تبارك وتعالى- يمهلك مزيدًا من الوقت ولا يأخذك على معصية وهو -سبحانه- على ذلك قادر؛ فتلك نعمة يجب أن تؤدى شكرها، ومن شكرها أن تقلع عن معاصيك، وترجع إلى الله وتسارع فى الخيرات، وتحسن استثمار ساعات عمرك، فأنت لا تدرى متى تكون النهاية.

---

(١) الترمذي ٢٦٠١. صحيح الجامع ٧٣٠٠ من حديث أبى برزة.

ومما قيل فى قيمة الوقت ما قاله ابن القيم رحمه الله: [إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها[١]].

وكما قيل: [الوقت هو رأس مال العبد الذى فيه يتاجر مع ربه -عز وجل- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[٢]: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» سُبْحَانَ الله! فَكَمْ ضَيَّعْنَا مِنْ نَخِيلٍ وَثَوَابٍ عَظِيمٍ مِنْ رَبٍّ جَلِيلٍ[٣]!].

وأهل العلم هم أكثر الخلق دراية بنعمة الوقت، وتراهم أكثر الناس حرصًا على ألا تمر عليهم ساعة دون أن ينالهم فيها من الخير شيء، والنماذج فى أمتنا الإسلامية أكثر من أن تحصى؛ فالسلف الصالح قد أعدهم الله -عز وجل- لحمل أمانة هذا الدين العظيم وتناقله عبر الأجيال ومن إعداد الله -عز وجل- لهم أن بارك لهم فى أوقاتهم، ورزقهم المعرفة بقيمة الزمن وحسن استثماره والخوف الشديد من إضاعته فيما لا ينفع ومما أثر فى ذلك نذكر بعض الأمثلة:

[عن فرقد -إمام مسجد البصرة- أنهم دخلوا على سفيان فى مرض موته فحدثه رجل بحديث فأعجبه، وضرب سفيان يده إلى تحت فراشه فأخرج ألواحًا فكتبه فقالوا له: "على هذه الحال منك؟" فقال: إنه حسن، إن بقيت فقد سمعت حسنًا، وإن مت فقد كتبت حسنًا[٤]"].

---

(١) الفوائد ٤١.

(٢) (صحيح): الترمذى ٣٤٦٤، صحيح الجامع ٤٥٧٢.

(٣) البحر الرائق ١٩٥.

(٤) علو الهمة ٢٠٧.

[رأى الإمام أحمد بعض عارفيه فى إحدى رحلاته فى طلب الحديث، فقال له معترضًا مستكثرًا ما حفظ وما كتب وما روى: "مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة" إلى متى؟ فقال الإمام أحمد: "مع المحبرة إلى المقبرة[١]"].

[كان أحد الصالحين إذا ثقل الناس فى الجلوس عنده يقول: أما تريدون أن تقوموا إن ملك الشمس يجرها لا يفتر[٢]].

فالوقت كنز ثمين يجب على كل ذى لب ألا يتركه ليذهب سدى دون أن يدخر فيه من الأعمال الصالحة ما يكون زادًا له يعنيه على طول السفر.

ولنعلم أحبتى فى الله أن الأمة حين قدرت لهذه النعمة العظيمة قدرها وعمل أبناؤها بجد ودأب، ولم يمضوا أوقاتهم فى اللعب واللهو وترف الحياة رزقهم الله - عز وجل- التمكين والعزة فسادوا الدنيا، ورفعوا راية الإسلام خفاقة، ولم يتبدل بهم الحال إلى ما نراه الآن إلا حين ضيعوا أعمارهم؛ فيما لا ينفع وركنوا إلى الكسل والتواكل، وانغمسوا فى شهوات الدنيا ومتعها الزائلة -إلا من رحم ربى- فعلى كل مسلم أن يتقي الله فى نفسه، ولا يدعها تتسرب من بين يديه جزءًا جزءًا فما نفسه إلا ساعاته فى هذه الحياة، ولو تخيلنا أن اليوم تحدث إلى ابن آدم لقال له:

أنا مَنْ مكانى فى الحياة وموعدى ... ما بين أمس قد تولى والغدِ
إنى لَيَوْمُكَ ذا الذى تحيا به ... موتى مع نور الصباح ومولدِى
ضيف على هذا الوجود أزورهُ ... وعلى فِعَالك يا ابن آدم شاهدِ

---

(١) علو الهمة ٢٠٨.

(٢) البحر الرائق ١٩٦.

أنا صفحة بكتاب عمرك فـاغتنم ... خسيرًا يكـن زادًا ليـوم المشـهدِ
أنا مـن جنـود الله عبـدٌ طيّـعٌ ... فكيف أعصى خـالقى ومقيـدى
أنا إن رحلت فلن أعود إلى الـدنا ... ومكانى فى سفر الزمـان ومرقـدى
رزقٌ يُساق إلى العبـاد فمنـهمو ... من يشـكر الله ومنـهم جاحـدِ
لا يستوى من بات ليلـىَ لاهيًـا ... ومن به عـاف الكـرى يتهجـدِ
العمـر حبـاتٌ بعقـدٍ أصـلها ... مـنى وإخـوانى.. وحتمًـا ينفـدِ
فإذا مضيتُ فقد ذهبـتُ ببعضـه ... فاحذر فراقى دون نيـل المقصـدِ

نعمة المنح الربانية

إن الله -تبارك وتعالى- يعطى لعباده منحًا وعطايا ربانية لا يبلغها عملهم أبدًا رحمة بهم وأخذًا بأيديهم إلى سبيل الخير ودرب النجاة ويمهد -سبحانه- لعبـاده الطريق إلى جنته وينشر رحمته وكرمه على تلك الطريق وبرغم ذلك نجد من يأبى إلا طريق الهلاك الملئ بالقلاقل والأهواء والفتن؛ والمنح الإلهية أكثر من أن يحصيها قلم؛ ولكن لا ضير إن نحن تذاكرنا بعضًا منها؛ لندرك ما نحن فيه من كرم ربنـا تبارك وتعالى:

- إن الله -عز وجل- جعل الصلاة إلى الصلاة مكفرات للذنوب مـا خـلا الكبائر، وكذلك الحال ما بين الجمعتين وما بين رمضان ورمضان؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ا أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ قَالَ[1]: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ؛ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

- إن ربنا -تبارك وتعالى- جعل من يؤدى فريضة الحج إن اسـتطاع إليهـا

(١) (صحيح): مسلم ٢٣٣، ابن ماجة ١٠٨٦، أحمد ٧٠٨٩.

سبيلا- كما يجب أن تؤدى رجع من حجة كيوم ولدته أمه؛ حيث قال رَسُولُ الله فِي شَأْنِ الحجِّ[١]: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّـه[٢]» أَيْ: عَادَ كَقَلْبِ طِفْلٍ؛ قَلْبُهُ بَرِئٌ مِنَ الغِلِّ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ، عَادَ قَلْبًا طَاهِرًا وَجِسْمًا بَرِيئًا مِنَ الذُّنُوبِ، ومن كرم الله علينا أن جعل لنا فى أيام دهرنا أيام خير وبركة، فجعل لنا ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، والتى إن أدركها عبد مؤمن فقد فاز فوزًا عظيمًا لا يدانيه متاع الدنيا ولو جمع له.

وكذلك منَّ الله علينا بأيام لصائمها ثواب عظيم مثل يوم عرفة؛ الذى يكفر ذنوب عام خلا ويوم عاشوراء والأيام التسع الأولى من ذى الحجة وأيام شهر شوال الستة وغير ذلك من الأيام التى يضاعف فيها الأجر أضعافًا لا يعلمها إلا صاحب الأمر فيها سبحانه.

نعمة الزوج والذرية

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم٢١]

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل٧٢]

---

(١) (صحيح): مسلم ١٣٥٠، الترمذى ٨٨١، النسائى ٢٦٢٧.

(٢) (ولدته أمه) من جميل ألفاظ النبي، فكما نزل في لفتين حول جسمه، فهو -الآن - في الحج في لفتين أيضًا، والحج المبرور يغفر الذنوب؛ وليس له جزاء إلا الجنة.

فالزوج نعمة والأبناء نعمة بنص القرآن الكريم، ويلمسها كل منا فى حياتـــه، فالزواج سنة من سنن المولى -عز وجل- فى خلقه بها يكون بقاء النوع وبها تعمر الأرض ذلك بشكل عام، ولو تحدثنا بشكل يخص الإنسان؛ فإن للزواج غايـــات أُخَر منها؛ الإحصان والاستقرار النفسى والاجتماعى وتكوين الأسرة التى هى نواة المجتمع، وقد تشترك فى هذه الغايات المجتمعات المسلمة وغير المسلمة؛ لكنها أكثر وضوحًا فى الأمة الإسلامية؛ فالأسرة فى الإسلام هى الأساس، وما خلا ذلك فهو الاستثناء على عكس المجتمعات غير المسلمة؛ التى نجد فيها أن التفكك الأسرى هو السائد والأسر المتماسكة هى الحالات الفردية.

والزواج فى ديننا الحنيف، ونعنى به: الزواج القائم على كتاب الله وسنة رسوله وعلى معرفة كل من الزوجين بما له من حقوق وما عليه من واجبات له أهـــداف كثيرة وجليلة فوق ما ذكرناه؛ فهو قائم على المودة والرحمة وأن يكون كلٌّ مـــن الزوجين سكنًا للآخر وعونًا له على طاعة الله تبارك وتعالى.

وأن يبتغي كل منهما وجه الله في معاملته للآخر، وأن يتعاونا فى تربية أبنائهما على الدين والأخلاق والعلم؛ حتى يكونوا صالحين مصلحين عابـــدين لله -عـــز وجل- رافعين لراية الإسلام ناصرين لدين الله -عز وجل- وإذا نشأ الأبناء علـــى الصلاح، فإنهم لا بد وأن يكونوا بارين بآبائهم وأمهاتهم فى الحياة وبعد الممات.

وإذا غدت الأسرة على ذلك الحال تحت مظلة الإسلام العظيم صلح بصلاحها المجتمع كله، وقد يقول قائل: إن الأبناء قد يصبحون نقمـــة، وذلـــك إن كـــانوا منحرفين عاقين فاسدين، فنقول: من وجد ذلك من أبنائه فليسأل نفسه أى تقصير كان منه فى حق ربه -عز وجل- وأى معصية كانت سببًا فى ذلك وهل كان بارًّا

بوالديه؟ فإن وجد من ذلك شيئًا فليصلح نفسه ويستغفر ربه، وإن كان من أهل الإيمان والبر؛ فليعلم أن ذلك اختبار وابتلاء من ربه وليصبر وليحتسب، وليسع فى إصلاحهم ما استطاع لذلك سبيلاً.

وكذلك الحال بالنسبة للزوج والزوجة فإن المعاصى تزيل النعم كما سبق ذكر ذلك، فعلى كل منا أن يتقى الله ويحمده على هذه النعمة العظيمة، وأن يجعل من حياته مع أهله وأبنائه عبادة يتقرب بها لمولاه -عز وجل- لأنه لو فعل فذلك يكون من شكر تلك النعمة، والشكر يجلب المزيد من الصلاح والبركة والحياة الطيبة.

إذن فالزوج والأبناء يستطيع المرء بهما أن يكون بين شطرى الإيمان؛ وهما الشكر والصبر؛ فإن رزق الزوجة الصالحة والأبناء البارين الصالحين كان من الشاكرين، وإن ابتلى بأبناء عاقين فاسقين أو زوجة سيئة الخلق، أو ابتليت المرأة بزوج على غير دين وخلق كان ذلك لأهل الفطنة بابًا عظيمًا للصبر والاحتساب والثواب العظيم من الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان ٧٤]

نعمة الصحبة الصالحة

إذا أراد الله -تعالى- بعبده المؤمن خيرًا هيأ له أسباب ذلك الخير، ومن تلك الأسباب أن يمن الله على عبده بالصحبة الصالحة التى تعينه على طاعة ربه؛ وللصحبة صور عدة ليست قاصرة على الأصدقاء أو الأخوة المقربين؛ ولكنها يمكن أن تكون فى أشكال كثيرة منها:

١- الزوجة: فالزوجة الصالحة صورة من صور الصحبة الصالحة فهي ترافق زوجها طيلة فترة زواجها؛ التي قد تمتد إلى عشرات السنين، وقد سماها الله -عز وجل- صاحبة في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس٣٦] وحينما يرزق المرء بالزوجة الصالحة أو ترزق المرأة بالزوج الصالح فإن ذلك يكون سببًا مباشرًا من أسباب العون على طاعة الله عز وجل.

٢- رفقاء العمل: فالإنسان قد يقضي في عمله جل وقته، وربما يزيد وقت عمله عن وقت تواجده بين أهله وأبنائه، ولا شك أن الصحبة المحيطة في العمل يكون لها تأثير عظيم على المرء سواءً بالإيجاب أو بالسلب، فعلى الإنسان أن يتحرى البيئة التي تساعده على طاعة الله والرفقاء الذين إذا رآهم ذكر الله سبحانه.

٣- الوالدان: فالوالدان: هما الصحبة الأولى للإنسان حين يأتي إلى الدنيا وصلاحهما يعود عليه بالخير الكثير: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف ٨٢]

قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان١٥]

فنحن مأمورون بصحبة والدَيْنَا وبرهما، فهما أحق الناس بها كما قال ﷺ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ [1]: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ؛ ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

ومفهوم الصحبة الصالحة بالنسبة للوالدين يختلف قليلاً عما سواه من صور الصحبة؛ لأن الأمر بالنسبة للوالدين خير كله، فإن كان الأب صالحًا أو كانت الأم صالحة كان لذلك الصلاح مردود طيب على الأبناء؛ لأن تأثير الوالدين مباشر على أبنائهم فيعود ذلك بالخير على الأبناء، ذلك بأنهم يحيون فى مناخ صالح يعينهم على طاعة الله.

وإن كانت الأم أو الأب أو كلاهما على غير ذلك فإن المسلم مأمور بحسن مصاحبتهما فى الدنيا وأن يبرهما كأحسن ما يكون البر؛ فيما لا يغضب الله عز وجل، فإن فعل كان خيرًا له عند ربه؛ فصحبة الأبوين مطلوبة فى كل الأحوال، ولا تترك لأى سبب؛ حتى الشرك بالله كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان١٥] فى حين أن المرء عليه أن يترك ما دون ذلك من أشكال الصحبة السيئة التى تبعده عن ربه، كما أن المسلم يؤجر على صحبته لوالديه إن كانا على غير صلاح؛ لأن فى ذلك استجابة وإخباتًا لأمر الله عز وجل.

---

(١)متفق عليه البخارى٥٩٧١ مسلم ٢٥٤٨.

٤- صحبة العلماء وأهل الفضل: ففى ذلك خير عميم للمسلم؛ فصحبة أهل العلم وأهل الفضل فيها فوائد عظيمة، فهى تجعل الإنسان يقترب من ربه ويعرفه حق المعرفة فيورث ذلك فى نفسه الخشية والتقوى والذلة لله -عز وجل- كما أن صحبتهم تجعل المؤمن يعبد ربه عن علم ودراية وعلى المنهج الصحيح، وتجعله أكثر بعدًا عن البدع والخرافات، وتكون تلك الصحبة سياجًا من مكايد الشيطان وسبيلاً له لذكر الرحمن، وإن كان فى مجالسهم كان فى روضة من رياض الجنة كما أخبرنا المصطفى.

٥- الأصدقاء: ومنهم من يكون فى المدرسة أو الجامعة، ومنهم من تأتى صداقتهم من خلال أماكن التقاء عامة كالنوادى والمكتبات، ومنهم من يرتبطون بحكم الجوار إلى غير ذلك من صور الصداقة المعروفة والصديق يكون مقربًا لصديقه يعلم من أمره ما قد لا يعلمه والداه أو إخوته، والإنسان قد يستمع لصديقه ويأخذ برأيه ومشورته أكثر من أي إنسان آخر.

ولذلك يكون تأثيره كبير جدًّا؛ فإن كان صالحًا أخذ بيده إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وإن كان غير ذلك جره معه إلى طريق الهلاك، وما يحدث فى عصرنا من مآسٍ بسبب رفقاء السوء لا يخفى على أحد.

وحسبنا فى كلام النبى ﷺ [1]: مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ والجليس السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً.

---

(١)متفق عليه: البخاري ٥٥٣٤، مسلم ٢٦٢٨.

فعلى من رزقه الله الصحبة الصالحة فى أى من جوانب حياته أن يحمد الله -عز وجل- على هذه النعمة الجليلة التى تأخذ بيده إلى سبيل ربه، وتحقق له الحياة الطيبة فى دنياه والفوز فى أخراه.

نعمة العافية

النبى ﷺ كان يداوم على سؤال ربه -سبحانه وتعالى- أن يرزقه العافية، وأوصى أمته بذلك حين قال[١]: سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْطَ عَبْدٌ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ وَالْبِرِّ فَإِنَّهُمَا فِي الْجَنَّةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ وَالْفُجُورَ فَإِنَّهُمَا فِي النَّارِ.

وكان يقول ﷺ -أيضًا- حينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ[٢]: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي.

وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية تلك النعمة العظيمة وأنه لا غنى لأي إنسان عنها.

والعافية لا تكون للأبدان فقط، ولكنها عافية الأبدان وعافية القلوب والأرواح وعافية الدين والأهل والمال كما ورد فى الحديث وخيرها يشمل الدنيا والآخرة.

---

(١) الترمذي (٥ / ٥٧٦) رقم ٣٥٩٤. وقال حسن.

(٢) أبو داود ٥٠٧٤؛ صحيح الجامع ٣٦٣١.

فعافية الأبدان تمام سلامتها ونقائها من الأسقام، وعافية القلوب والأرواح طهرها وخلوها من الشرك والحقد والسخط والرياء والكذب والجزع وغير ذلك من الأمراض المهلكة.

وعافية الدين تكون فى إخلاصه لله -عز وجل- والقيام بحقه وتنقية العقيدة مما يشوبها، وعافية الدنيا أن تكون بين يدى المؤمن يزرع فيها ما يبلغه جنة ربه ولا تكون فى قلبه فتشغله عما خلقه من أجله.

وعافية المال أن يكتسبه المرء من حلال وينفقه فى سُبُل الخير وألا يطغى به أو يرائى وأن يؤدى شكره.

وعافية الأهل أن يكونوا عونًا على الطاعة صالحين مصلحين.

فمن رزق العافية وجب عليه الشكر ومن حرم شيئًا منها فعليه بالصبر، وليسأل الله من فضله، وليستعن بنعمة العافية التى وهبها له ربه على طاعته، وليعتبر بأهل الابتلاء، وليدع لهم من قلبه أن يرزقهم الله العافية فهى نعمة لا يدرك قدرها إلا من فقدها.

نعمة الألم

الألم الذى يتعامل البعض منا معه على أنه ضرب من العذاب هو فى حقيقة الأمر من أجل نعم الله علينا، وقد يستغرب البعض ذلك خاصة ممن يتعاملون مع الأشياء بظاهرها فقط دون التأمل فيما تحويه من معانٍ خفية وحكم ربانية.

فالألم بداية فيه دليل على الحياة؛ فالحى فقط هو من يشعر بالألم؛ فإن فقد الشعور بالألم فهو لا -محالة- ميت والألم قد يكون للبدن وقد يكون للروح والقلب والأخير أشد.

مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوانُ عَلَيهِ ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

أما آلام البدن على اختلاف أشكالها هى فى حقيقتها رحمة من الله بعباده، فلولا الألم ما عرفنا مكان الداء ولا سعينا للتداوى منه بما يسر الله لنا من سبل ذلك، ولظل المرض كامنًا فى أجسادنا ينتشر ويتسع ضرره؛ حتى يقضى على المرء دون أن يدرى، كما أن الألم يجعل العبد فى الغالب يتقرب إلى ربه ويعيد حساباته مع خالقه ومع الناس من حوله، وقد يكون سببًا للتوبة والرجوع إلى صراط الله المستقيم، كما أنه يكفر سيئات العبد ويرفع درجته إن كان من الصابرين على البلاء؛ فالنبى أخبرنا بذلك، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1]: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

وأما آلام الروح والقلب فهى كذلك نعمة كبيرة؛ لأن فيها دلالة واضحة على أن تلك الروح وذلك القلب لا تزال الحياة تدب بهما؛ فالإنسان حين يتألم ويحزن قلبه إذا اقترف ذنبًا أو قصر فى واجبه نحو ربه أو حين تنتهك حرمات الله -عز

(١) (صحيح): البخارى ٥٦٤٢، مسلم ٢٥٧٣.

وجل- وحدوده فتلك علامة من علامات سلامة القلب وحياة الروح وذلك ما يجب أن يكون عليه قلب المؤمن.

أما حين لا يتأثر القلب بشيء من ذلك ولا يتحرك له ساكن فليعلم صاحبه أنه ميت، وإن كان محسوبًا على الأحياء، وليسع لإصلاح نفسه قبل فوات الأوان.

نعمة الستر

الله -سبحانه وتعالى- من صفاته أنه ستير يغمر العباد بستره الجميل، وما أعظمها من نعمة أن يعيش العبد فى ستر ربه -عز وجل- فلولا ستر الله علينا لكنا من الهالكين، فمن منا لا يذنب ومن منا لا يقع فى المعاصى بجهل أو عمد؟ الإجابة: لا أحد؛ فالنبيّ أخبرنا أن كل ابن آدم خطاء، ولا

معصوم إلا من عصمه الله -عز وجل- من الأنبياء والمرسلين.

لذلك كان العبد -دائمًا- فى حاجة ملحة إلى ستر مولاه -تبارك وتعالى- اللطيف الحليم؛ الذى يرى عباده يذنبون ويخطئون وبرغم ذلك يسترهم فلا يفضحهم بين خلقه؛ لعلهم يرجعون إلى طريق الحق ويتوبون إلى خالقهم.

فالعبد قد يكون فيه الكثير من الخير، ولكنه يزل أحيانًا أو يصبه شيء من الغفلة أو الضعف البشرى أو الجهل، فيقع فى الذنب، ولو أن الله -عز وجل- حينئذ فضحه بين الخلائق فكيف تكون حاله؟.

إنه قد لا يستطيع أن يكمل حياته بشكل كريم، وقد لا يستطيع أن ينظر فى عيون من حوله، وقد تضيع هيبته إن كان من أصحاب المكانة كما يمكن أن يحول ذلك بينه وبين التوبة إن كان فى نفسه ضعف؛ حتى وإن تاب إلى ربه وتقبل الله

منه تلك التوبة وغفر له فقد لا يغفر له الناس، وسيظل ذنبه يطارده ربما حتى الموت، ولكن الله حين يستره بين خلقه لعلمه -سبحانه- بأنه عائد إليه فإن زلته أو ذنبه يكون بينه وبين ربه العليم الغفور الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن سيئاتهم.

والستر لا يكون فى الدنيا فحسب؛ بل إن أعظم الستر ما يكون فى الآخرة حين يجتمع الخلق كلهم فى صعيد واحد، وتعرض الأعمال وينصب ميزان الحق والعدل؛ حينها يتجلى ستر الله على عباده المؤمنين الذين قدموا لأنفسهم فى الدنيا من الخير ما يجعلهم ينعمون بستر الله فى الآخرة وأكرم بتلك النعمة العظيمة يوم يقوم الأشهاد، ويفضح أمر الكفار والمشركين والمفسدين فى الأرض.

والنبى ﷺ يقول[١]: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

فالمؤمن الذى يستر أخاه المؤمن فى الدنيا يكون ذلك سببًا؛ لأن يستره الله فى الآخرة؛ فالجزاء من جنس العمل، فالمسلم يجب عليه إن رأى من أخيه ذنبًا أو كبوة أو أمرًا يجب ألا يطلع عليه أحد من الناس؛ فعليه ألا يذيع ذلك بين الناس وأن يستر أخاه ويذكره بربه فذلك خلق المؤمن الحق.

---

(١) متفق عليه البخارى ٢٤٤٢، مسلم ٢٥٨٠.

وربما كان ذلك الفعل سببًا فى رجوع المذنب عن ذنبه أو تجاوز المتعثر لعثرته أو كان ذلك فيه حل لمشكلة ما يمر بها، إلى جانب أن ذلك يشيع الحب والود بين المسلمين.

ومن الناس من يستره الله -عز وجل- حال الذنب؛ ولكنه بحمقه يأبى إلا أن يكشف ستر الله عليه كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ حين قال من حديث أبى هريرة رضى الله عنه[١]: كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ.

نعم الله -عز وجل- على عباده فى الكون

نعم الله -سبحانه وتعالى- فى الكون من حولنا كثيرة لا يمكننا حصرها؛ وهى واضحة جلية لا يستطيع صاحب عقل سليم أن ينكرها ولم يَدَّعِ أحد على مر التاريخ مهما بلغ من الكفر والجحود أنه يمتلكها أو أنه خالقٍ أيًّا منها لعظمة تلك النعم وإبداع الخالق العظيم فى صنعها.

ولو تحدثنا عن تلك النعم للزمنا لذلك آلاف الصفحات، ولن تفى بجزء يسير من قدرها، ولكن سنحاول أن نذكر بشكل مختصر بعض تلك النعم والآيات الكونية من باب التذكرة بعظيم فضل الله علينا.

* نعمة خلق السموات: فالله -عز وجل- خلق السموات بإتقان يحار فيه العقل وبجمال يأخذ بالأبصار والقلوب؛ فقد رفع السموات بلا عمد وجعلها سقفًا

---

(١)متفق عليه البخاري ٦٠٦٩.مسلم٢٩٩٠

محفوظًا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٣٢].

وزينها -سبحانه- للناظرين ونثر فيها النجوم الساحرة؛ التي تجملها وفي الوقت ذاته جعلها رجومًا للشياطين، ليس هذا فحسب بل إنه -عز وجل- جعل تلك النجوم دليلاً وهاديًا يهتدى به المسافر في البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك٥] وقال: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل١٦].

والله -سبحانه- هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ وهو -عز وجل- يسير حركة الأفلاك والأجرام السماوية بدقة عجيبة منذ الأزل فلا يعتريها خلل، ولا يصيبها كلل.

* نعمة تمهيد الأرض: قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ٦] وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء٣١]

فالله -تبارك وتعالى- خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة عليها؛ فمهدها وجعل لها من الجبال ما يعمل على ثباتها وشق فيها السبل والأنهار، وذللها لعباده ليتيسر لهم العيش عليها، وليبتغوا من فضل الله الذي جعله فيها، وليسعوا في جنباتها؛ طلبًا للرزق بشتى أنواعه، وجعل تحت ثراها نعمًا كثيرة وخيرات وفيرة

وجعل تربتها رحمًا يحتضن البذر؛ حتى يصير زرعًا وشجرًا ينتفع به الإنسان والحيوان والطير وسائر المخلوقات.

* نعمة نزول المطر: فالله -عز وجل- وحده هو منزل الغيث رحمة منه وفضلاً أليس هو القائل سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيد﴾ [الشورى٢٨].

وهو القائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة ٦٨-٦٩] فالمولى -سبحانه- ينزل المطر من السماء؛ ليحي به الأرض وينبت به الزرع، ويستقى منه الإنسان وما سواه من المخلوقات؛ فالماء أساس كل حياة كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء٣٠]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل١٠-١١]

فلولا نعمة المطر لهلك الحرث والنسل، ولما قامت أي صورة من صور الحياة على الأرض.

* نعمة الشمس والقمر والليل والنهار: الشمس والقمر نعمتان من نعم الله، وآيتان عظيمتان من آياته -سبحانه- فى الكون لا تخفيان على أحد، ومنذ أن

خلقهما الله -تبارك وتعالى- وهما يسيران على نظام ثابت لا يختل ولا يتغير وتمر عليهما الأعوام والقرون، وهما على تلك الحال من الدقة والاستمرار لم يتخلف منهما شيء، ولم تصبهم الأزمنة الطويلة بالتقادم أو الضعف، فلم يحدث أن استيقظ أهل الأرض يومًا فلم يجدوا الشمس فى كبد السماء، ولم يتخلف القمر يومًا عن منازله المقدرة له من ربه مالك الملك، ولم يدرك أي منهما الآخر بل كلٌّ يسير بأمر ربه طائعًا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس٥].

وقال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس ٣٨ - ٤٠].

ففى خلق الشمس والقمر آية عظيمة وعبرة لأولى الألباب، وكذلك أوضح لنا ربنا أن فيهما من النفع الشيء الكثير؛ فالشمس تضئ لنا الأرض وتمدها بالدفء والحرارة اللازمة لكل الأحياء كما أن حرارتها هى التى تبخر مياه المحيطات والمسطحات المائية؛ لتتكون السحب التى تحمل المطر إلى شتى بقاع الأرض؛ ليحي به الله الأرض، وينتفع به كل الخلائق وغير ذلك من المنافع التى لا نعلم منها إلا القليل، والقمر ينير لنا ظلمة الليل وتزدان به السماء، وله دور أساسى فى ظاهرة المد والجزر فى البحار والمحيطات، والشمس والقمر جعلهما الله -عز وجل-

حسبانًا لأهل هذه الأرض، فبهما تعرف الأيام وتحسب الشهور والأعوام، بهما يكون الليل والنهار؛ فلولا حركة الشمس التي قدرها الله -سبحانه- لما وجد الليل والنهار.

فتعاقب الليل والنهار آية أخرى من أيات العزيز الحكيم، ونعمة يمن بها على خلقه، ففي تعاقب الليل والنهار حكمة بالغة من رب العالمين، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [سورة النبأ١٠-١١].

فالنهار جعله الله لكسب الرزق والسعي في الأرض وإعمارها، والليل يأتي بعده ليستريح الإنسان ويسكن ليستطيع مواصلة السعي بعد ذلك، والله -عز وجل- يريد من عباده أن يتدبروا مافي ذلك من حكمة وفضل ورحمة منه، وأن يحمدوه على نعمه فيقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ* وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص٧١-٧٣]

* البحر وما فيه من منافع: قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ١٤].

فالمولى -عز وجل- سخر لنا البحر بما فيه من فوائد ومنافع ونعم كثيرة؛ فمنه يأكل الناس أنواعًا عديدة من الأسماك والكائنات البحرية، ومنه تستخرج اللآلئ والدرر والأحجار النفيسة التي يتحلى بها البعض وعلى صفحته تسير السفن للسفر والتجارة والنقل؛ كما أن البحر يحوى فى أحشائه صورًا من الحياة عجيبة وبديعة لا يملك من يراها إلا أن يسبح بحمد الخالق البديع.

* الأنعام: الله -سبحانه وتعالى- خلق الأنعام، وجعلها مسخرة لبنى آدم لينتفعوا بها ويستعينوا بها على حياتهم فى هذه الدنيا؛ حتى يتمكنوا من أداء دورهم الذى خلقهم الله من أجله.

وفى ذلك تكريم كبير لبنى البشر وإحسان من ربهم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ* وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس٧١-٧٣].

فالعبد مأمور بالشكر على هذه النعمة، فالله -عز وجل- سخر لنا هذه الأنعام، وجعل لنا فيها منافع عظيمة؛ فمنها طعامنا ومنها ركوبنا، ومنها نشرب لبنًا خالصًا يخرجه الله بقدرته من بين فرث ودم ،وقبل ذلك كله فإن فيها من الآيات والمنافع ما يجعلنا نسبح بحمد ربنا؛ الذى خلق فسوى، كما أن من شكرنا أن نشكر الله أن كرمنا فوق كل تلك المخلوقات ومنحنا العقل والتمييز والفهم.

نعم الإله على الخلائق ظاهرة ... سبحان ربى ذى العطايا الغامرة
رفع السموات الطباق تروهـا ... فى الليل زينتها النجوم الساهرة
والأرض قد مُدَّت بساطًا للورى ... سُبُلا وأنهارًا رياضًا ناضرة

جعل الجبـــال الشـــامخات رواســـيًا ... لله تسجد فى خضـــوع ذاكـــرة
والفلـــك ســـخرها تســـير بـــأمره ... مـــا بين أمواج البحـــور الهـــادرة
والشمس تشرق بالضياء على الـــدنا ... فى عمرها لم تبد يومًـــا معـــذرة
ومنـــازل القمـــر المـــنير ترونـــها ... تترى من الرب العلـــيم مُقـــدرة
والطـــير صـــافات بآفـــاق الســـما ... وبأمـــر باريهـــا تســـير مسخرة
وتأمـــل العصـــفور يـــبنى عشـــه ... فى دقـــة لذوي العقـــول محـــيرة
وانظر جموع النحل ما بـــين الربـــا ... تجنى الرحيق من المروج الزاهـــرة
فتحيلها شـــهدًا بقـــدرة منـــعم ... ذكرى لأصحاب القلوب المبصرة
وانظر عيون المـــاء عـــذبٌ ماؤهـــا ... من بين أحشاء الصخور مفجـــرة
والمـــزن فى كبـــد الســـماء بديعـــة ... بالغيث من رب العبـــاد مســـيرة
والبحـــر إن تغشـــاه تبصـــر عالمًـــا ... يهب اليقين لكل نفـــس حـــائرة
فالله أبدعـــه بقـــدرة خالـــق ... كـــل لوجهته هـــداه ويسَّـــره
والكون كل الكون طوعًـــا جـــاءه ... فيا لكـــفران القـــلوب المنكـــرة
فاحمـــد لربـــك منَّـــه وعطـــاؤه ... واسأله أن يعطيك نفسًا شـــاكرة
فلـــئن شـــكرت الله زادك نعمـــة ... وجزاك خلدًا فى نعـــيم الآخـــرة

نعم الله فى خلق الإنسان

كان جسم الإنسان ولا يزال يحوى الكثير من الأسرار والإعجاز فى الخلـق؛ الذى يحار فيه عقل اللبيب، وما أجرى من دراسات على ذلك التكـوين البـديع أكثر من أن يحصى وفى كل يوم يكتشف العلماء إعجازًا أو سرًّا لم يكن معروفًـا من قبل، وجسم الإنسان كان على مر العصور موضع اهتمام بالغ من العلمـاء، وأفنى الكثير منهم عمره فى البحث عن أسراره وعجائبه.

ولا عجب فى ذلك، فالانسان قد خلقه الله -عز وجل- بيديه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة فى الأرض فلا عجب أن تحوى هذه الصنعة الربانية عددًا غير محدود، ومن الأيات الباهرات والأسرار التى لا يعلم كنهها غير خالقها جل وعلا.

وعلى العبد أن ينظر فى نفسه، ويتأمل فيها ليرى قدرة الله واضحة جلية، وليدرك مدى إكرام الله له وعظيم نعمه عليه والتى لو أمضى حياته كلها يشكر الله -تبارك وتعالى- على واحدة منها ما وسعه ذلك، ومن تلك النعم السمع والبصر والعقل والكلام والحركة وما فى أعضائه الداخلية من نظام دقيق محكم وإبداع عجيب لا يكون إلا من رب عليم قدير؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ٧٨]

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ *الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار٦-٨]

فنعم الله فى نفس العبد لا تعد، ويجب على المؤمن أن يتأمل خلقه ونعم الله عليه، وأن ينظر فى نفسه؛ ليرى ما أعطاه الله من عطايا، وليدرك عظمة خالقه، وليعتبر بأصحاب الابتلاء ممن حرموا بعض هذه النعم؛ ليستشعر ما هو فيه من نعمه؛ فلا يدرك قدر النعمة إلا من يفقدها، فالإنسان -عادة- يألف ما هو عليه من عافية، ولا يشعر بقيمتها الكبيرة، وقد لا يخطر بباله التفكير فيها على كونها نعمة تستوجب الشكر؛ فهو يعيش فى الدنيا يأكل ويشرب يسمع ويبصر، يمشي

ويفكر، يتكلم وينام إلى غير ذلك، وهو لا يدرك أن كل ما هو عليه من نعم ربه هو من وهبها وهو وحده القادر على أن يترعها منه.

فعلى كلّ منَّا إن أراد أن يعلم ما هو فيه من نعم أن ينظر إلى من ابتلاهم الله بفقد بعض تلك النعم؛ فلننظر إلى فاقدى البصر؛ حتى نعرف قدر نعمة الإبصار، وللنظر إلى الأصم لندرك نعمة السمع ولنتأمل حال الأبكم حتى نشعر بنعمة البيان، وكذلك كل صاحب مرض أو بلية.

وليكن تأملنا مدعاة لنا؛ لنتقى الله فى تلك النعم ولا نجترئ بها على محارم الله -عز وجل- ولنعلم أن جوارحنا سوف تشهد علينا بين يدى الله يوم القيامة كما قال الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت٢٠]

فعلينا أن نحمد الله -سبحانه وتعالى- على تلك النعم العظيمة، وليكن شكرنا لها أن نتقى الله فيها، وأن نستعملها فى مرضاته وإن ابتلى أحد بفقد واحدة أو أكثر من تلك النعم فليصبر وليحتسب؛ وإن كان من ذوى الهمة العالية فعليه أن يشكر الله عند الابتلاء؛ ليقينه فى حكمة الله -عز وجل- التى قد تخفى على الكثيرين؛ فلعل الابتلاء يكون كفارة لذنوبه أو رفعًا لدرجته أو سببًا فى رجوعه إلى ربه.

وصدق رسول الله حين قال ﷺ [١]: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

نعمة الشكر

إن كنا قد تحدثنا عن جانب من نعم الله -سبحانه وتعالى- علينا؛ والتي يجب على المؤمن أن يتأملها ويستشعرها ويعترف بها وبكونها هبة من الله وحده المتفضل على عباده بما هو أهله -سبحانه- فالغاية الكبرى من تذكر النعم هي تحقيق الشكر لله على ما أعطى ووهب.

وهكذا الشكر لا يتأتى إلا بتوفيق الله؛ فالشكر في حد ذاته نعمة من الله تستوجب الشكر.

فالعبد يتقلب في نعم مولاه -تبارك وتعالى- فهو يرزق النعمة من المنعم -سبحانه- ثم يرزقه شكرها، فيكون ذلك الشكر نعمة أخرى يشكر عليها، وهكذا لا تنقطع النعم بل تتوالى؛ ليحيا العبد المؤمن في سلسلة من نعم الله عليه ما بين شكر النعمة ونعمة الشكر.

فعلى العبد المؤمن أن يكون على يقين كامل أن الله -سبحانه- هو المنعم الذي يرزق عباده شكر نعمه، ويوفقهم إلى سُبُله؛ حتى أن المرء حين يرى نعمة ربه فيلهج لسانه بكلمة: (الحمد لله) فليعلم أنها رزق ساقه الله إليه، ومنَّه من ربه،

---

(١) (صحيح): أحمد ١٨٤٥٥، مسلم ٢٩٩٩.

تضاف إلى عموم نعمه ومننه، ولو لم يرد الله -عز وجل- أن ينطق بمجرد كلمة الحمد لما استطاع أن يتلفظ بها مهما اجتهد فى ذلك؛ لأنه فى النهاية ملك لخالقه وعبد لا يملك من أمره شيء إلا ما شاء الله.

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك، وارزقنا الشكر على توفيقك لنا حتى نشكرك عليها، فأمرنا كله إليك، وقلوبنا بين يديك، فلا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا رب العالمين.